

# سيرة مختصرة وعرض للماركسية

المؤلف : لينين .  
كتب : في جويلية-نوفمبر 1914  
نشر لأول مرة : عام 1915 في الموسوعة الكبرى، الطبعة 7، المجلد 28

مقدمة

كارل ماركس

مذهب ماركس

المادية الفلسفية

الديالكتيك

المفهوم المادي للتاريخ

الصراع الطبقي

مذهب ماركس الاقتصادي

القيمة

القيمة الزائدة

الاشتراكية

تكتيك نضال البروليتاريا الثوري

## مقدمة

إن المقال عن كارل ماركس الذي يصدر بشكل كراس كتبته على ما أذكر في عام 1913 لموسوعة "غرانات" Granat. وقد ألحقت في نهاية المقال قائمة مفصلة إلى حد كاف بالمطبوعات الأجنبية في الأغلب عن ماركس. و هذه القائمة غير واردة في الطبعة الحالية. ثم إن هيئة تحرير الموسوعة قد نبذت لأسباب تتعلق بالرقابة نهاية المقال التي تعرض تكتيك ماركس الثوري. ومع الأسف لا أستطيع أن أورد هنا هذه النهاية لأن المسودة بقيت بين أوراق في مكان ما في كراكوفيا أو سويسرا. إلا أنني أذكر فقط أنني أوردت في نهاية المقال فيما أوردت مقطعا من رسالة ماركس إلى انجلس بتاريخ 17 نيسان/أبريل 1857 حيث جاءت كلمات ماركس التالية: "سيتوقف كل شيء في ألمانيا على إمكانية دعم الثورة البروليتارية بطبعة ما جديدة لحرب الفلاحين. عندئذ يكون كل شيء على ما يرام." و هذا ما لم يفهمه في سنة 1905 مناشفتنا الذين بلغ بهم الأمر الآن حد خيانة الاشتراكية خيانة تامة و الانتقال إلى جانب البرجوازية.

لينين

موسكو 14 أيار / ماي 1918

---

المناشفة: اتجاه انتهازي في الحركة الاشتراكية-الديمقراطية الروسية

## كارل ماركس

ولد كارل ماركس في الخامس من أيار / ماي سنة 1818 في مدينة ترير بروسيا الريفية. وكان أبوه محاميا و كان يهوديا ثم اعتنق البروتستانتية في سنة 1824. ولم تكن عائلة ماركس الميسورة و المثقفة عائلة ثورية. و بعد أن أتم دراسته الثانوية في مدينة ترير دخل جامعة بون ثم جامعة برلين فدرس الحقوق وبنوع خاص التاريخ و الفلسفة. وفي سنة 1841 أنجز دراسته بتقديم أطروحته الجامعية حول فلسفة أبيقور. أما مفاهيمه فكانت حتى ذلك الوقت ما تزال مفاهيم هيغلية – نسبة إلى هيغل – مثالية. و في برلين انضم إلى حلقة "الهيغليين اليساريين" [1] (برونو باور و غيره) الذين كانوا يحاولون أن يستخلصوا من فلسفة هيغل استنتاجات إحادية و ثورية.

وعندما تخرج ماركس من الجامعة أقام في مدينة بون حيث كان يأمل بالحصول على منصب أستاذ في الجامعة. و لكن السياسة الرجعية التي كانت تسلكها الحكومة كانت قد أقصت، عام 1832، لودفيغ فيورباخ عن منصبه كأستاذ، و عادت في سنة 1837، فرفضت من جديد السماح له بدخول الجامعة و منعت في سنة 1841 الأستاذ الشاب برونو باور من إلقاء محاضرات في بون. هذه السياسة الرجعية اضطرت ماركس إلى العدول عن الحياة الجامعية. في ذلك الوقت كانت أفكار الهيغلية اليسارية تتقدم سريعا جدا في ألمانيا. و كان لودفيغ فيورباخ قد أخذ، منذ 1837 على الخصوص، يوجه النقد إلى علم اللاهوت و يتجه نحو المادية التي أحرزت الغلبة نهائيا عنده في سنة 1841 (كتاب "جوهر المسيحية") و في سنة 1843 ظهر كتابه "أسس فلسفة المستقبل". لقد كتب انجلس فيما بعد حول هذين المؤلفين لفيورباخ: "كان يجب أن يكون الإنسان قد تحسس بنفسه الأثر التحرري لهذين الكتابين... فلقد أصبحنا نحن جميعا" (أي الهيغليين اليساريين بمن فيهم ماركس) "دفعة واحدة من أتباع فيورباخ." [2] و في ذلك الوقت أسس البرجوازيون الراديكاليون في ريناني، الذين كان لهم بعض نقاط تماس مع الهيغليين اليساريين، جريدة معارضة في مدينة كولونيا باسم "الجريدة الريفانية" [3] (التي أخذت تصدر ابتداء من أول كانون الثاني سنة 1842) و قد دعي ماركس و برونو باور إلى العمل محررين أساسيين فيها. و في تشرين الأول / أكتوبر سنة 1842 أصبح ماركس رئيس تحريرها فانتقل من مدينة بون إلى كولونيا. و تحت إدارة ماركس أخذ اتجاه الجريدة الديمقراطية الثوري يزداد وضوحا. فعمدت الحكومة في أول الأمر إلى إخضاع الجريدة لرقابة ثنائية بل ثلاثية ثم أمرت بتعطيلها تماما ابتداء من أول كانون الثاني سنة 1843. فاضطر ماركس حينئذ للتخلي عن مركزه في تحرير الجريدة و لكن ذهب ماركس لم ينفذ الجريدة إذ أنها منعت من الصدور في آذار/ مارس 1843. و من أهم المقالات التي نشرها ماركس في "الجريدة الريفانية" [4] يشير انجلس إلى مقال حول أوضاع الفلاحين الكرامين في واد الموزيل [5]. و قد أدرك ماركس من نشاطه الصحفي أن معلوماته في الاقتصاد السياسي غير كافية فاندفع بحماسة إلى دراسته.

في سنة 1843 تزوج ماركس في كريزناخ من جيني فون ويستفالن، صديقة طفولته التي خطبها وهو ما يزال طالبا. كانت زوجته تتحدر من عائلة نبيلة رجعية بروسية. وكان أخ جيني فون ويستفالن الأكبر وزيرا للداخلية في بروسيا في مرحلة كانت من أشد المراحل إغراقا في الرجعية وذلك بين 1850 و 1858.

وفي خريف 1843 انتقل ماركس إلى باريس ليصدر في الخارج مجلة راديكالية مع أرنولد روغه (عاش أرنولد روغه من سنة 1802 إلى سنة 1880). وكان هيغليا يساريا. وسجن من 1825 إلى 1830 و هاجر بعد سنة 1848. و بعد 1866 – 1870 أصبح من أنصار بسمارك). و لكن لم يصدر من هذه المجلة المسماة "الحولية الألمانية الفرنسية" سوى العدد الأول إذ اضطرت للتوقف بسبب الخلافات مع روغه [6]. وفي المقالات التي نشرتها هذه المجلة برز ماركس ثوريا ينادي "بانقراض لا هوادة فيه لكل ما هو كائن" بما في ذلك "الانتقاد بالسلاح" [7] ويتوجه بالنداء إلى الجماهير و البروليتاريا.

في أيلول / سبتمبر سنة 1844 جاء فريدريك انجلس إلى باريس لقضاء بضعة أيام فيها فأصبح منذ ذلك الحين الصديق الحميم لماركس. و قد أسهم كلاهما بأشد الحماسة في الحياة المحمومة للجماعات الثورية التي كانت آنذاك في باريس (و كانت تولي هناك أهمية خاصة لمذهب برودون [8]. و قد صفى ماركس حساب هذا المذهب تصفية قاطعة في كتابه "يؤس الفلسفة" الذي صدر عام 1847) وخاضا نضالا حادا ضد مختلف نظريات الاشتراكية البرجوازية الصغيرة و صاعا نظرية و تكتيك الاشتراكية البروليتارية الثورية أو الشيوعية (الماركسية). راجع مؤلفات ماركس في هذه المرحلة الممتدة من 1844 إلى 1848 في قائمة الكتب. و في سنة 1845 طرد ماركس من باريس لكونه ثوريا خطرا بناء على طلب الحكومة البروسية. فجا إلى بروكسال و أقام فيها. و في ربيع 1847 انتمى ماركس و انجلس إلى جمعية سرية للدعاية هي "عصبة الشيوعيين" [9] وقاما بقسط بارز في المؤتمر الثاني لهذه العصبة المنعقد في لندن. و في تشرين الثاني / نوفمبر 1847 و بناء على تكليف المؤتمر وضع ماركس و انجلس "بيان الحزب الشيوعي" المشهور الذي نشر في شباط / فبراير 1848. إن هذا الكتاب يعرض بوضوح ودقة عبقرين المفهوم الجديد للعالم، يعرض المادية المتناسكة التي تشمل أيضا ميدان الحياة الاجتماعية و الديالكتيك بوصفه العلم الأوسع و الأعمق للتطور و نظرية النضال الطبقي و الدور الثوري الذي تضطلع به البروليتاريا، خالقة المجتمع الجديد، المجتمع الشيوعي، في التاريخ العالمي.

و عندما انفجرت ثورة شباط/فبراير 1848 [10] طرد ماركس من بلجيكا فعاد إلى باريس ليتركها بعد ثورة آذار/مارس [11] و يعود إلى ألمانيا ليقم في مدينة كولونيا حيث صدرت من أول حزيران/جوان 1848 إلى 19 أيار/ماي سنة 1849 "الجريدة الريفانية الجديدة" [12] التي كان ماركس رئيس تحريرها. وقد أثبتت مجرى الأحداث الثورية في 1848-1849 كما أثبتت فيما بعد جميع الحركات البروليتارية و الديمقراطية في جميع بلدان العالم صحة النظرية الجديدة على نحو ساطع. في بادئ الأمر أقدمت الحركة الطافرة المعادية للثورة على إحالة ماركس إلى القضاء (لكن تم تبرئته في 9 شباط/فبراير 1849) ثم نفته من ألمانيا في 16 أيار/ماي 1849. فانتقل أولا إلى باريس حيث طرد منها أيضا بعد تظاهرة 13 حزيران/جوان 1849 [13]. ثم ذهب إلى لندن حيث عاش حتى آخر أيامه.

إن ظروف حياة المهاجر هذه كانت مضمينة إلى أقصى حد كما يتبين بوضوح شديد من مراسلات ماركس و انجلس (المنشورة سنة 1913) فقد

عاش ماركس و عائلته تحت وطأة الفقر المدقع و لولا المساعدة المالية الدائمة المخلصة التي كان يقدمها له انجلس لما استحال على ماركس انجاز كتاب "راس المال" و حسب بل لكان هلك حتما من البؤس. و من جهة أخرى كانت المذاهب و التيارات السائدة في الاشتراكية البرجوازية الصغيرة و الاشتراكية غير البروليتارية بوجه عام تضطر ماركس إلى خوض نضال دائم لا هوادة فيه كما كانت تضطره أحيانا للرد على أكثر التهجمات الشخصية جنونا و غباوة [14]. و قد تحاشى ماركس حلقات المهاجرين و صاغ في جملة من المؤلفات التاريخية نظريته المادية باذلا جهده على دراسة الاقتصاد السياسي. و قد نفع ماركس في هذا العلم روحا ثورية (انظر مذهب ماركس لاحقا) في مؤلفيه: "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي" (1859) و "راس المال" (المجلد الاول 1867).

ثم جاءت مرحلة انتعاش النشاط في الحركة الديمقراطية في أواخر العقد السادس و في العقد السابع فدفعت ماركس من جديد إلى النشاط العملي. ففي سنة 1864 (28 أيلول/سبتمبر) تأسست في لندن الأممية الاولى المشهورة (جمعية الشغيلة العالمية). وكان ماركس روحها كما كان أيضا واضع "رسالتها" الاولى [15] و عدد كبير من المقررات و التصريحات والبيانات. إن ماركس بجمعه شمل الحركة العمالية في مختلف البلدان و سعيه إلى توجيه شتى أشكال الاشتراكية غير البروليتارية السابقة للماركسية (مازيني، برودون، باكونين، التريديونية الليبرالية الانجليزية، الانحرافات اللاسالية اليمينية في ألمانيا، الخ.) في طريق النشاط المشترك و كفاحه نظريات جميع هذه الشيع و المدارس الصغيرة قد صاغ تكتيكا موحدا لنضال الطبقة العاملة البروليتاري في مختلف البلدان. و بعد سقوط كومونة باريس (1871) التي قدرها ماركس تقديرا عميقا، أخذا، باهرا، فعلا، ثوريا ("الحرب الاهلية في فرنسا" 1871) وبعد الانشقاق الذي أحدثه الباكونيون [16] في الأممية لم يعد باستطاعة هذه الأممية أن تعيش في أوروبا و عقب مؤتمر 1872 في لاهاي انتقل المجلس العام للأممية إلى نيويورك بناء على رأي ماركس. و هكذا أنجزت الأممية الأولى مهمتها التاريخية مفسحة المجال لمرحلة من النمو في الحركة العمالية في جميع البلدان نموا أقوى و أشد مما مضى إلى ما لا حد له، مرحلة تطور هذه الحركة من حيث الاتساع مرحلة تأليف أحزاب عمالية اشتراكية جماهيرية على أساس شتى الدول القومية.

وما بذله ماركس من نشاط شديد في الأممية و ما قام به من أعمال نظرية بمزيد من الشدة أيضا قد زلزالا صحته زلزلة نهائية. وقد واصل وضع الاقتصاد السياسي على أسس جديدة و اتمام كتاب "راس المال" جامعا عددا ضخما من المستندات الجديدة و دارسا عدة لغات (اللغة الروسية مثلا) و لكن أقعده المرض عن انجاز كتاب "راس المال".

و في الثاني من كانون الأول / ديسمبر سنة 1881 ماتت زوجته. وفي 14 آذار / مارس سنة 1883 رقد ماركس في كرسية رقادا أخيرا هادئا و دفن مع زوجته في مقبرة هايغات في لندن. و قد مات لماركس عدة أبناء و ما يزالون أطفالا في لندن حين كانت عائلته تعاني بؤسا مدقعا. و كانت بناته الثلاث متزوجات من اشتراكيين من إنجلترا و فرنسا و هن: ايلينوار ايفلينغ و لورا لافارغ و جيني لونغي و ابن هذه الاخيرة عضو في الحزب الاشتراكي الفرنسي.

1. **الهيغليين اليساريين او الهيغليين الشبان:** اتجاه مثالي في الفلسفة الألمانية في ثلاثينات و أربعينات القرن التاسع عشر. حاول الهيغليون الشبان الخروج بنتائج راديكالية لاثبات ضرورة الاصلاح البرجوازي في ألمانيا. و كان زعماء ذلك الاتجاه: دافيد سترافوس الأخوة باور ماكس ستيرنر و آخرون. و لوقت ما انضم فيورباخ و كذلك ماركس و انجلس في فترة شبابهم إلى الهيغليين الشبان. و انفصل ماركس و انجلس فيما بعد عنهم و انتقدوا الفحوى المثالي و البرجوازي الصغير للاتجاه في "العائلة المقدسة" (1844) و "الايدولوجيا الألمانية" (1845-1846).

2. "لودفيغ فيورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية"، فيريدريك انجلس.

3. "الجريدة الرينانية للسياسة و التجارة و الصناعة": جريدة يومية ظهرت في كولونيا من 1 جانفي 1842 إلى 31 مارس 1843. أسسها ممثلون عن البرجوازية الرينانية الذين كانوا يعارضون الاستبداد البروسي. و قد تم استدعاء بعض الهيغليين اليساريين للاسهام في الجريدة. و أصبح ماركس متعاوننا في أبريل 1842 و أحد محرريها منذ أكتوبر من نفس السنة. و تحت اشراف ماركس أصبحت "الجريدة الرينانية" تتخذ صبغة ديمقراطية ثورية. و في جانفي 1843 أصدرت الحكومة البروسية أمرا باغلاق الصحيفة في 1 أبريل 1843 و في نفس الوقت فرض رقابة خاصة مشددة.

4. لم يقع ادراج هذه "البيلوغرافيا" التي كتب لينين لهذا المقال.

5. المرجع هو مقال ماركس "تبرير مراسل الموزال".

6. المرجع هو "الحوليات الألمانية-الفرنسية". مجلة أشرف على تحريرها كارل ماركس و ارنولد روج و صدرت بالألمانية في باريس. و لم يظهر منها إلا العدد الأول - عددا مزدوج- في فيفري 1844. و قد تضمنت أعمالا لكارل ماركس و فردريك انجلس التي سجلت الانتقال النهائي لماركس و انجلس نحو المادية و الشيوعية. و توقف اصدار المجلة نتيجة اختلافات جوهرية بين ماركس و البرجوازي الراديكالي روج.

7. "مساهمة في نقد فلسفة الحق لهيغل- المقدمة". كارل ماركس.

8. البرودونية هي اتجاه برجوازي صغير في الاشتراكية معادي للماركسية و تسمى بذلك نسبة لمفكرها الفوضوي الفرنسي جون بيار برودون. فقد انتقد برودون الملكية الكبيرة الرأسمالية من موقع برجوازي صغير و حلم بارساء ملكية خاصة صغيرة. و اقترح انشاء بنوك "الشعب" و

"التبادل" يكون بإمكان العمال بواسطتها امتلاك وسائل الإنتاج و أن يصبحوا حرفيين و يضمونوا تسويقا عادلا لانتاجهم. لم يدرك برودون الدور التاريخي للبروليتاريا و أبدى موقفا سلبيا من الصراع الطبقي و الثورة البروليتارية و ديكتاتورية البروليتاريا. و كفوضوي أنكر الحاجة إلى الدولة. و قد وجه ماركس نقدا حادا لبرودون في عمله "بؤس الفلسفة".

9. **العصبة الشيوعية** هي أول منظمة شيوعية أممية للبروليتاريا بقيادة ماركس و انجلس تأسست في لندن في أوائل شهر جوان 1947. و ساعد ماركس و انجلس في وضع البرنامج العملي و التنظيمي للعصبة. فكتبا "بيان الحزب الشيوعي" الذي نشر في فيفري 1848. كانت العصبة الخليف لجمعية العمال العالمية (الأممية الأولى) التي تواجدت إلى حدود نوفمبر 1852. و لعب زعمائها البارزين بعد ذلك دورا قياديا في الأممية الأولى.

10. إشارة إلى الثورة البرجوازية في فرنسا في فيفري 1848.

11. إشارة إلى الثورات البرجوازية في ألمانيا و النمسا التي بدأت في مارس 1848.

12. **"الجريدة الرينانية الجديدة"** صدرت في كولونيا من 1 جوان 1848 إلى غاية 19 ماي 1849. و قد اشرف ماركس و انجلس على إدارة الجريدة و تولى ماركس رئاسة التحرير. و وصف لينين "الجريدة الرينانية الجديدة" بأنها أروع و أفضل ناطق باسم البروليتاريا الثورية" و برغم الاضطهاد و العراقيل التي وضعها أمامها البوليس دافعت الصحيفة بقوة و ثبات عن مصالح الديمقراطية الثورية و مصالح البروليتاريا. و بسبب ابعاد ماركس عن بروسيا في ماي 1849 و اضطهاد المحررين الآخرين توقفت الجريدة عن الظهور.

13. إشارة إلى المظاهرة الجماهيرية في باريس و التي نظمها "المونتاني" – حزب البرجوازية الصغيرة – احتجاجا على خرق الرئيس و الاغلبية في الجمعية التشريعية للأوامر الدستورية التي وضعتها ثورة 1848. و تم تقريق المظاهرة من قبل الحكومة.

14. إشارة إلى كراس ماركس "هار فوغت" التي كتبها كرد على منشور افتراء "سيرورتي ضد 'جريدة ألمانية'" لفوغت و هو رجل استفزازي بونابرتي.

15. كانت "جمعية العمال الأممية الأولى" أول اتجاه عالمي ضم أحزاب العمالية من العالم في حزب عالمي واحد موحد.

16. **الباكونية** هي اتجاه يعود إلى زعيمها ميخائيل باكونين و هو مفكر للفوضوية و عدو للماركسية و الاشتراكية العلمية.

## مذهب ماركس

الماركسية هي منهج أفكار ماركس و مذهبه. لقد تابع ماركس و أتم على نحو عبقرى التيارات الفكرية الرئيسية الثلاثة في القرن التاسع عشر و التي تعزى إلى البلدان الثلاثة الأكثر تقدما في العالم: الفلسفة الكلاسيكية الألمانية و الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانجليزي و الاشتراكية الفرنسية المرتبطة بالتعاليم الثورية الفرنسية بوجه عام. إن ما تتصف به أفكار ماركس من منطق رائع و انسجام تام إنما يعترف به له حتى خصومه. و تؤلف أفكار ماركس بمجموعها المادية الحديثة و الاشتراكية العلمية المعاصرة بوصفها نظرية الحركة العمالية و برنامجها في جميع البلدان المتقدمة في العالم. كل هذا يحملنا على أن نقدم لعرض المضمون الرئيسي للماركسية، مذهب ماركس الاقتصادي، بلمحة موجزة عن مفهومه للعالم بوجه عام.

### المادية الفلسفية

كان ماركس قد أصبح ماديا منذ 1844-1845 أي في الفترة التي تكونت فيها أفكاره: لقد كان، بوجه خاص، من أتباع فيورباخ. و لم يقرأ ماركس بما عند فيورباخ من نقاط ضعف حتى فيما بعد إلا من حيث عدم الكفاية في منطق ماديته و شمولها. لقد كان يرى أن الشأن

التاريخي العالمي لفيورباخ الذي "شغل دهر" قائم بالضبط على مقاطعته النهائية لمثالية هيغل و توكيده للمادية، هذه المادية التي "لم تكن في القرن الثامن عشر و خصوصا في فرنسا نضالا ضد المؤسسات السياسية الراهنة و كذلك ضد الدين و اللاهوت و حسب بل أيضا... ضد كل ميتافيزية" (بمعنى "التأملات المخمورة" و بخلاف "الفلسفة المعقولة") (كتاب "العائلة المقدسة" في "التركة الأدبية") [1]. و كتب ماركس أيضا: "يرى هيغل أن حركة الفكر، هذه الحركة التي يشخصها و يطلق عليها اسم الفكرة، هي الاله (الخالق، الصانع)... أما أنا فإني أرى العكس: إن حركة الفكر ليست إلا انعكاسا لحركة المادة منقولة إلى دماغ الإنسان و متحولة فيه" ("رأس المال" المجلد الأول. توضيح في آخر الطبعة الثانية) [2]. و على نحو تام الانسجام مع فلسفة ماركس المادية هذه كتب فريدريك انجلز عند شرحه لها في كتابه "ضد دوهرنغ" الذي قرأه ماركس قبل الطبع يوم كان مخطوطة: "إن وحدة العالم ليست في كيانه... بل في ماديته. و هذه المادية قد أثبتتها... تطور طويل و شاق للفلسفة و علوم الطبيعة... الحركة شكل وجود المادة. لم يوجد قط و لا يمكن أن يوجد أبدا في أي مكان مادة بدون حركة و لا حركة بدون مادة... و لكن إذا تساءلنا... عن ماهية الفكر و المعرفة و عن مصدرهما نجد أنهما إنتاج الدماغ الإنساني و أن الإنسان نفسه هو نتاج الطبيعة الذي نما و تطور في محيط طبيعي معين و مع هذا المحيط. و إذ ذاك يغدو من البدهة أن نتاجات دماغ الانسان التي هي أيضا عند آخر تحليل نتاجات للطبيعة ليست في تناقض بل في انسجام مع سائر الطبيعة". "لقد كان كان هيغل مثاليا أي أن الأفكار في دماغه لم تكن في نظره إلا صور مجردة، (في الأصل: انعكاسات، يستعمل انجلز أحيانا كلمة 'نسخ') إلى هذا الحد أو ذلك، عن الأشياء و التطورات الواقعية. بل على العكس من ذلك فالأشياء و تطورها لم تكن في نظر هيغل إلا صوراً تعكس الفكرة التي كانت موجودة، و لا أعلم أين، قبل وجود العالم" [3]. و قد كتب انجلز في مؤلفه "لودفيغ فورباخ" الذي عرض أفكاره فيه و أفكار ماركس حول فلسفة فورباخ و الذي لم يدفعه إلى الطبع إلا بعد أن أعاد قراءة المخطوطة القديمة حول هيغل و فورباخ و المفهوم المادي للتاريخ الذي وضعها بالتعاون مع ماركس في 1844-1845 يقول: "إن المسألة الأساسية العظمى في كل فلسفة و لاسيما الفلسفة الحديثة هي مسألة علاقة الفكر بالكائن أو علاقة العقل بالطبيعة... أيهما يسبق الآخر العقل أم الطبيعة... و كان الفلسفة تبعا لإجاباتهم على هذا السؤال قد انقسموا إلى معسكرين كبيرين: فأولئك الذين كانوا يؤكدون تقدم العقل على الطبيعة و يقبلون على هذا النحو في آخر تحليل بخلق العالم أيا كان نوع هذا الخلق... ألفوا معسكر المثالية. و الآخرون الذين كانوا يقررون تقدم الطبيعة انتموا إلى مختلف مدارس المادية." و كل مفهوم آخر للمثالية و المادية - بالمعنى الفلسفي - ليس من شأنه إلا خلق البلبلة. و قد نبذ ماركس نبذا قاطعا، ليس فقط المثالية المقرونة أبدا إلى الدين، بشكل أو بآخر، بل نبذ أيضا وجهة نظر هيوم و كانط المنتشرة خصوصا في أيامنا هذه، و العجزية، و الانتقادية، و المذهب الوضعي [4] بأشكالها المختلفة إذ أنه كان يعتبر هذا النوع من الفلسفة بمثابة تنازل "رجعي" أمام المثالية و في أحسن الأحوال بمثابة "أسلوب جبان يقبل المادية في السر و ينكرها في العلن." [5] و بصدد هذا راجعوا رسالة ماركس إلى انجلز المؤرخة في 12 كانون الأول/ديسمبر 1868 التي يتحدث فيها عن محاضرة العالم الطبيعي الشهير توماي هكسلي و يلاحظ فيها أن هذا العالم قد ظهر "ماديا أكثر من العادة" و اعترف "بأننا ما دمنا نلاحظ فعلا و ما دمنا نفكر فلا نستطيع أن نخرج أبدا من المادية" ثم يتهمه ماركس بأنه "فتح بابا سريريا" للعجزية و لنظرية هيوم. و من المهم خصوصا أن نسجل رأي ماركس حول العلاقة بين الحرية و الضرورة: "ليست الضرورة عمياء إلا ما دامت غير مفهومة. الحرية هي فهم الضرورة" (انجلز. "ضد دوهرنغ") و هذا يعني، إذن، الاعتراف بمطابقة الطبيعة للقوانين الموضوعية، و تحول الضرورة الديالكتيكي إلى حرية (كتحول "الشيء بذاته" و غير المدرك و لكنه قابل للدراك إلى "شيء لنا"، تحول "جوهر الأشياء" إلى "ظواهرات"). إن العيب الأساسي في المادية القديمة و في جملتها مادية فورباخ (بالأحرى المادية "المبتدلة" عند بوختر و فوغت و موليشوت) هو في نظر ماركس و انجلز: أول - إن هذه المادية كانت "في أساسها ميكانيكية" و لم تكن لتأخذ بعين الاعتبار آخر ما توصلت إليه الكيمياء و البيولوجيا (و من المناسب أن نضيف إليها في أيامنا هذه النظرية الكهربائية للمادة).

ثانيا – إن المادية القديمة لم تكن تاريخية و لا ديالكتيكية (كانت ميتافيزيقية بمعنى أنها ضد الديالكتيكية) و لم تكن تطبق وجهة نظر التطور من جميع نواحيها على نحو منسجم محكم الحلقات إلى النهاية. ثالثا – إنها تفهم "جوهر الإنسان" على نحو تجريدي لا بمثابة "مجموعة العلاقات الاجتماعية كافة" (التي يحددها التاريخ على نحو ملموس). و هكذا لم تقم إلا "بتفسير" العالم مع أن المقصود كان "تغييره" و بتعبير آخر إن المادية القديمة لم تكن تدرك شأن "النشاط العملي الثوري".

## الديالكتيك

لقد كان ماركس و انجلس يريان في ديالكتيك هيغل أوسع مذهب من مذاهب التطور و أوفرها مضمونا و أشدها عمقا و أثنى اكتسابا حققته الفلسفة الكلاسيكية الألمانية. و كانت كل صيغة أخرى لمبدأ التطور تتراءى لهما وحيدة الجانب فقيرة المضمون تشوه و تفسد السير الواقعي للتطور (الذي يتميز أحيانا بقفزات و كوارث و ثورات) في الطبيعة و المجتمع. "إننا كلينا، ماركس و أنا، كنا وحدنا تقريبا للذين عملا لانقاذ الديالكتيك الواعي" (من المثالية بما فيها الهيجلية نفسها) "و ذلك بإدخاله في المفهوم المادي للطبيعة". "إن الطبيعة هي محك الاختبار، و بإمكاننا أن نضيف أن علم الطبيعة الحديث قد أغنى إلى أقصى حدود الغنى (كتب هذا قبل اكتشاف الراديو و الالكترونيات و تحول العناصر الخ.) و لا يزال يضيف لوازم هذا الاختبار يوميا و بذلك أثبتت هذه العلوم أن الطبيعة تعمل في نهاية المطاف على نحو ديالكتيكي لا على نحو ميتافيزيقي". [6]

قال انجلس أيضا: "إن الفكرة الأساسية الكبرى التي تقول بأن العالم لا يتألف من أشياء تامة الصنع بل هو مجموعة من العمليات يطرا فيها على الأشياء التي تبدو في الظاهر ثابتة و كذلك على انعكاساتها الذهنية في دماغن، أي الأفكار، تغيير مستمر من الصيرورة و الفناء، إن هذه الفكرة الأساسية الكبرى قد نفذت على نحو عميق منذ هيغل في الإدراك العام حتى أنه لا يوجد من يعارضها في شكلها العام هذا. و لكن الاعتراف بهذه الفكرة كلاما شيء و تطبيقا في الواقع في كل حال من الأحوال و في كل ميدان من ميادين البحث شيء آخر". "ليس هناك من أمر نهائي مطلق مقدس أمام الفلسفة الديالكتيكية فيه ترى كل شيء و في كل شيء خاتم الهلاك المحتوم، و ليس ثمة شيء قادر على الصمود في وجهها غير الحركة التي لا تنقطع، حركة الصيرورة و الفناء، حركة التصاعد أبدا دون توقف من الأدنى إلى الأعلى. و هذه الفلسفة نفسها ليست إلا مجرد انعكاس هذه الحركة في الدماغ المفكر". فالديالكتيك هو إذن في نظر ماركس علم القوانين العامة للحركة سواء في العالم الخارجي أم في الفكر البشري". [7]

إن هذا المظهر الثوري لفلسفة هيغل هو ما تبناه ماركس و طوره. فالمادية الديالكتيكية "لم تعد بحاجة إلى فلسفة توضع فوق العلوم الأخرى" و إن ما تبقى من الفلسفة القديمة هو "نظرية الفكر و قوانينه – المنطق الشكلي و الديالكتيك". [8] غير أن الديالكتيك حسب مفهوم ماركس كما هو حسب مفهوم هيغل يشمل ما يسمى اليوم بنظرية المعرفة أو "العرفانية" التي يجب أن تعالج موضوعها من وجهة نظر تاريخية أيضا و ذلك بأن تدرس و تعمم منشأ المعرفة و تطورها أي الانتقال من اللامعرفة إلى المعرفة.

في أيامنا دخلت فكرة النمو فكرة التطور على نحو كلي تقريبا في الوعي الاجتماعي و لكن عن غير طريق فلسفة هيغل. بيد أن هذه الفكرة كما صاغها ماركس و انجلس بالاستناد إلى هيغل هي أوسع جدا و أغنى جدا في محتواها من الفكرة الشائعة عن التطور.

يبدو كأنه يستنسخ مراحل مقطوعة سابقا و لكن على نحو آخر و على درجة الرفع ("نفي النفي") تطور على نحو لولبي إذا صح التعبير لا على نحو خط مستقيم – تطور بقفزات و كوارث و ثورات – "انقطاعات في التدرج" تحول الكمية إلى كيفية – اندفاعات داخلية نحو التطور يثيرها التضاد و التصادم في القوى و الاتجاهات المتميزة التي تعمل في جسم معين أو في حدود ظاهرة معينة أو في قلب مجتمع معين – تبعية متبادلة و صلة وثيقة لا يمكن فصمها بين جميع جوانب كل ظاهرة (و التاريخ يكشف دائما عن جوانب جديدة)، صلة تحدد مجرى الحركة الوحيد المشروع الكلي: هذ هي بعض مميزات الديالكتيك بوصفه مذهباً للتطور أغنى من المذهب الشائع. (راجع رسالة ماركس إلى انجلس بتاريخ 8 كانون الثاني 1868 حيث يهزأ من "سفسطات شتاين" المشدودة" التي من الحماسة خطها بالديالكتيك المادي").

## المفهوم المادي للتاريخ

أدرك ماركس خلو المادية القديمة من المنطق و عدم اكتمالها و طابعها الوحيد الجانب. فافتنع بأنه يجب "جعل علم المجتمع منسجما مع الأساس المادي و إعادة بنائه استنادا إلى هذا الأساس". [9] و إذا كانت المادية بوجه عام تفسر الوعي بالكائن و ليس بالعكس فهي تتطلب عند تطبيقها على الحياة الاجتماعية للإنسانية تفسير الوعي الاجتماعي بالكائن الاجتماعي. يقول ماركس: "إن التكنولوجيا تبرز أسلوب عمل الإنسان تجاه الطبيعة أي العملية المباشرة لإنتاج حياته و بالتالي الظروف الاجتماعية لحياته و الأفكار أو المفاهيم الفكرية التي تنجم عن هذه الظروف" ("رأس المال" المجلد الأول). [10] و قد أعطى ماركس صيغة كاملة عن الموضوعات الأساسية للمادية في تطبيقها على المجتمع البشري و على تاريخه و ذلك في مقدمة كتابه: "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي" قال:

"إن الناس أثناء الإنتاج الاجتماعي لحياتهم يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية مستقلة عن إرادتهم. و تطابق علاقات الإنتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية.

و مجموع علاقات الإنتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع أي الأساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء فوقه حقوقي و سياسي و تطابقه أشكال معينة من الوعي الاجتماعي. إن أسلوب إنتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعي و السياسي و الفكري بصورة عامة. فليس إدراك الناس هو الذي يحدد معيشتهم بل على العكس من ذلك معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد إدراكهم. و عندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة من تطورها تدخل في تناقض مع علاقات الإنتاج الموجودة أو مع علاقات الملكية – و ليست هذه سوى التعبير الحقيقي لتلك – التي كانت إلى ذلك الحين تتطور ضمنها. فبعد ما كانت هذه العلاقات أشكالا لتطور القوى المنتجة تصبح قيودا لهذه القوى. و عندئذ ينفث عهد الثورة الاجتماعية. و مع تغير الأساس الاقتصادي يحدث انقلاب في كل البناء الفوقي الهائل بهذا الحد أو ذاك من السرعة. و عند دراسة هذه الانقلابات ينبغي دائما التمييز بين الانقلاب المادي لشروط الإنتاج الاقتصادية – هذا الانقلاب الذي يحدد بدقة العلوم الطبيعية – و بين الأشكال الحقوقية و السياسية و الدينية و الفنية و الفلسفية أو بكلمة مختصرة الأشكال الفكرية التي يتصور فيها الناس هذا النزاع و يكافحونه.

فكما أنه لا يمكن الحكم على فرد وفقا للفكرة التي لديه عن نفسه كذلك لا يمكن الحكم على عهد انقلاب كهذا وفقا لوعيه.



فينبغي تفسير هذا الوعي بتناقضات الحياة المادية و بالنزاع القائم بين قوى المجتمع المنتجة و علاقات الإنتاج [...] إن أساليب الإنتاج الأسلوب الآسيوي و القديم و الاقطاعي و البرجوازي الحديث مرسومة بخطوطها الكبرى يمكن اعتبارها بمثابة عهود متصاعدة من التكون الاجتماعي الاقتصادي". [11]

(راجع الصيغة الموجزة التي يعطيها ماركس في رسالته إلى انجلس بتاريخ 7 تموز/جويلية 1866: "نظريتنا حول تحديد تنظيم العمل بواسطة وسائل الإنتاج").

إن اكتشاف المفهوم المادي عن التاريخ أو بتعبير أدق تطبيق و توسيع المادية بدأب و انسجام إلى النهاية حتى تشمل ميدان الظواهر الاجتماعية قد قضى على عيبين رئيسيين في النظريات التاريخية السابقة: أولا: لم تكن هذه النظريات تأخذ بعين الاعتبار، في أحسن الحالات، غير الدوافع، دون أن تدرك القوانين الموضوعية التي تسيطر تطور نظام العلاقات الاجتماعية، دون أن ترى جذور هذه العلاقات في درجة تطور الإنتاج المادي. ثانيا: كانت النظريات السابقة تهمل على وجه الضبط عمل جماهير السكان بينما مكنت المادية التاريخية لأول مرة من دراسة الظروف الاجتماعية لحياة الجماهير و من دراسة تغيرات هذه الظروف بدقة العلوم الطبيعية. لقد كان "علم الاجتماع" و علم التاريخ قبل ماركس يكدرسان في أحسن الحالات وقائع خام مجموعة كيفية اتفق و يعرضان بعض الجوانب من حركة تطور التاريخ. لقد شقت الماركسية الطريق أمام دراسة واسعة شاملة لعملية نشوء تشكيلات المجتمع الاقتصادية و تطورها و انهيارها و ذلك بتحليلها مجموعة الميول المتناقضة و ردها إلى ظروف المعيشة و الإنتاج الواضحة المعالم لمختلف طبقات المجتمع و بإبعادها اختيار الأفكار "القائدة" أو تأويلها على نحو ذاتي و اعتباطي و يكشفها عن جذور جميع الأفكار و جميع الميول المتباينة في أوضاع القوى المنتجة المادية دون استثناء. إن الناس هم صانعو تاريخهم و لكن ما الذي يحدد دوافعهم و خصوصا دوافع الجماهير البشرية؟ و ما هو سبب نزاعات الأفكار و المطامح المتضادة؟ و ماذا يمثل مجموع هذه النزاعات في مجمل المجتمعات البشرية و ما هي الشروط الموضوعية لإنتاج الحياة المادية التي يقوم عليها أساس كل نشاط الناس التاريخي؟ و ماهو قانون تطور هذه الشروط؟ إن ماركس قد أعار انتباهه لهذه المسائل و رسم الطريق لدراسة علمية للتاريخ بوصفه حركة تطور واحدة تسيطر وفق قوانين معينة رغم تنوعها العجيب و رغم جميع تناقضاتها.

## الصراع الطبقي

من المعلوم أنه في كل مجتمع تتصادم مطامح البعض مع مطامح البعض الآخر و أن الحياة الاجتماعية مليئة بالتناقضات، و أن التاريخ يكشف لنا عن الصراع الذي بين الشعوب و المجتمعات، كما يقوم داخل الشعوب و المجتمعات نفسه، و أنه يبين لنا أيضا مراحل متعاقبة من الثورة و الرجعية، من السلم و الحروب، من الركود و التقدم السريع أو الانحطاط. إن الماركسية قد رسمت النهج الموجه الذي يتيح اكتشاف وجود القوانين في هذا التعقيد و التشوش الظاهر و نعني بهذا نظرية الصراع الطبقي. فقط دراسة مجمل المطامح لدى جميع أعضاء مجتمع ما أو عدد من المجتمعات تسمح بتحديد نتيجة هذه المطامح تحديدا علميا. هذا مع العلم أن المطامح المتناقضة يولدها تباين الأوضاع و شروط الحياة لدى الطبقات التي ينقسم إليها كل مجتمع. يقول ماركس في "البيان الشيوعي": "إن تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا (ثم يضيف انجلس فيما بعد: ما عدى المشاعية البدائية) لم يكن سوى تاريخ صراع بين الطبقات. فالحر و العبد، و النبيل و العامي، و السيد الاقطاعي و القن، و المعلم و الصانع، أي باختصار، المضطهدون و المضطهدين، كانوا في تعارض دائم و كانت بينهم حرب مستمرة، تارة ظاهرة، و تارة مستترة، حرب كانت تنتهي دائما إما بانقلاب ثوري يشمل المجتمع بأسره و إما بانهيار الطبقتين معا [...]

أما المجتمع البرجوازي الحديث الذي خرج من أحشاء المجتمع الاقطاعي الهالك فإنه لم يقض على التناقضات بين الطبقات بل أقام طبقات جديدة محل القديمة و أوجد ظروفًا جديدة للاضطهاد و أشكالًا جديدة للنضال بدلًا من القديمة. إلا أن ما يميز عصرنا الحاضر، عصر البرجوازية، هو أنه جعل التناحر الطبقي أكثر بساطة. فإن المجتمع أخذ بالانقسام، أكثر فأكثر، إلى معسكرين فسيحين متعارضين، إلى طبقتين كبيرتين العداء بينهما مباشر: هما البرجوازية و البروليتاريا". و منذ الثورة الفرنسية الكبرى كشف تاريخ أوروبا في عدد من البلدان على نحو بديهي خاص عن السبب الحقيقي للأحداث و هو صراع الطبقات. فمنذ عهد عودة الملكية [12] ظهر في فرنسا عدد من المؤرخين (تبييري و غيزو و مينيه و تبيير) الذين كانوا مجبرين عند تلخيصهم لما كان يحدث أن يعترفوا بأن الصراع الطبقي موجود و أنه المفتاح الذي يفتح فهم كل تاريخ فرنسا. و لكن المرحلة الحديثة الأخيرة، مرحلة انتصار البرجوازية التام، و المؤسسات التمثيلية و الاقتراع الموسع (إن لم يكن العام)، مرحلة الصحافة اليومية الزهيدة الثمن، التي تتغلغل بين الجماهير إلخ. هذه المرحلة قد أثبتت بمزيد من الجلاء أيضا (و لو أحيانا على نحو وحيد الجانب و "سلمي" و "دستوري") إن الصراع الطبقي هو محرك الأحداث. إن المقتطف التالي من "البيان الشيوعي" يبين لنا ما طلبه ماركس من علم الاجتماع من وجهة نظر التحليل الموضوعي لأوضاع كل طبقة من طبقات المجتمع الحديث بالارتباط مع تحليل تطور هذه الطبقة: "و ليس بين جميع الطبقات التي تقف الآن أمام البرجوازية وجهًا لوجه إلا طبقة واحدة ثورية حقا هي البروليتاريا. إن جميع الطبقات الأخرى تتحط و تنقرض في النهاية مع نمو الصناعة الكبرى أما البروليتاريا فهي – خلافا لذلك – أخص و أساس منتجات هذه الصناعة. إن الشريحة السفلى من الطبقة المتوسطة و صغار الصناعيين و الباعة و الحرفيين و الفلاحين تحارب البرجوازية من أجل الحفاظ على وجودها بوصفها فئات متوسطة. فهي ليست إذن ثورية بل محافظة و أكثر من محافظة أيضا إنها رجعية. إذ أنها تريد أن تدور عجلة التاريخ إلى الوراء. و إن حدث و أن كانت ثورية فذلك لأنها في حالة انتقال إلى صفوف البروليتاريا و بذلك لا تدافع عن مصالحها الآنية بل عن مصالحها المستقبلية و هي تتخلى عن وجهة نظرها الخاصة لتتخذ لنفسها و جهة نظر البروليتاريا". و في جملة من المؤلفات التاريخية أعطى ماركس أمثلة ساطعة و عميقة عن علم التاريخ المادي و عن تحليل ظروف كل طبقة بذاتها و أحيانا ظروف مختلف الجماعات و الفئات في الطبقة الواحدة و بين على نحو ساطع لماذا و كيف "أن كل نضال طبقي هو نضال سياسي" [13]. إن المقطع الذي استشهدنا به أنفا يبين بوضوح كم هي معقدة شبكة العلاقات الاجتماعية و الدرجات الانتقالية بين طبقة و أخرى و بين الماضي و المستقبل التي يحللها ماركس ليظهر حاصل كل التطور التاريخي.

إن نظرية ماركس تجد تأكدها و تطبيقها الأكثر عمقا و شمولًا و تفصيلا في مذهبه الاقتصادي.

1. انظر "العائلة المقدسة"، القسم الثامن، لماركس و انجلز.

2. "رأس المال"، ماركس و انجلز، المجلد الأول.

3. "ضد دوهرينغ"، فريديريك انجلز.

4. **الغنوصية** هي فلسفة مثالية تقر بأنه لا يمكن إدراك العالم و أن عقل الإنسان محدود و ليس بمقدوره معرفة ما يتجاوز مملكة الحواس. و للغنوصية أشكال مختلفة: فيقر بعض الغنوصيين بالوجود الموضوعي للعالم المادي و لكنهم ينكرون إمكانية معرفته و ينكرون بوجود العالم المادي بحجة أن الإنسان لا يمكنه معرفة ما إذا يوجد شيء ما خارج حواسنا.

**نقد** – أطلق كانط هذا الاسم على فلسفته المثالية معتبرا القدرة الإدراكية للإنسان هي الهدف من تلك الفلسفة. نقدية كانط قادت إلى الاقتناع بأن عقل الإنسان لا يمكنه معرفة طبيعة الأشياء.

**الفلسفة الوضعية** – نزعة واسعة الانتشار في الفلسفة البرجوازية و علم الاجتماع. أسسها الفيلسوف و عالم الاجتماع الفرنسي كونت (1798-1857). يرفض الوضعيون إمكانية إدراك النظم و العلاقات الداخلية و ينكرون كذلك دور الفلسفة كمنهج للمعرفة و تغيير العالم الموضوعي. فهم يختزلون الفلسفة في حصيلة من المعطيات توفرها مختلف فروع العلم و وصف سطحي لنتائج الملاحظة المباشرة. تعتبر الوضعية نفسها أنها

"فوق" المادية و المثالية إلا أنها في الواقع هي ليست إلا نوع من المثالية الذاتية.

5. "لودفيغ فيورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية" لفريدريك انجلز.

6. "ضد دوهرنغ" لفريدريك انجلز.

7. "لودفيغ فيورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية" لفريدريك انجلز.

8. "ضد دوهرنغ" لفريدريك انجلز.

9. "لودفيغ فيورباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية" لفريدريك انجلز.

10. انظر "رأس المال" لكارل ماركس، المجلد الأول.

11. "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي" لكارل ماركس (1859).

12. الاستعادة – الفترة بين 1814 و 1830 في فرنسا عندما كانت السلطة في البوربون و اعيدت الى العرش بعد قلب نظام الحكم من قبل الثورة البرجوازية الفرنسية في 1792.

13. انظر الأعمال الكاملة لماركس و انجلز، المجلد الأول، موسكو 1973، الصفحات: 108–109 و 116 و 117–118.

## مذهب ماركس الاقتصادي

يقول ماركس في مقدمة كتابه "رأس المال": "إن الهدف النهائي لهذا الكتاب هو أن يكشف عن القانون الاقتصادي لحركة المجتمع الحديث" أي المجتمع الرأسمالي البرجوازي. فدراسة علاقات الإنتاج في هذا المجتمع المحدد تاريخيا من حيث ولادة هذه العلاقات و تطورها و زوالها ذلك هو مضمون مذهب ماركس الاقتصادي. إن الشيء السائد في المجتمع الرأسمالي هو إنتاج البضائع. و لهذا يبدأ تحليل ماركس بتحليل البضاعة.

## القيمة

البضاعة هي بالدرجة الأولى شيء يسد حاجة من حاجات الإنسان. و هي بالدرجة الثانية شيء يمكن مبادلته بشيء آخر. إن منفعة شيء ما تعطيه قيمة استعمالية. أما القيمة التبادلية – أو القيمة باختصار – فهي، أول، العلاقة، النسبة، في مبادلة عدد من القيم الاستعمالية من نوع ما بعدد من القيم الاستعمالية من نوع آخر. إن التجربة اليومية تبين لنا أن الملايين و المليارات من مثل هذه المبادلات تقيم دون انقطاع علاقات من التعادل بين القيم الاستعمالية الأكثر تنوعا و الأكثر تباينا. فما هو العنصر المشترك بين هذه الأشياء المختلفة التي يعادل بعضها ببعض باستمرار في نظام من العلاقات الاجتماعية؟ إن العنصر المشترك بينها هو كونها نتاجات عمل. فعندما يتبادل الناس منتجاتهم يعادلون بين أنواع العمل الأكثر تباينا. إن إنتاج البضائع هو نظام من العلاقات الاجتماعية يخلق فيه شتى المنتجين منتجات

متنوعة (التقسيم الاجتماعي للعمل) ويعادلون بينها عند التبادل. و بالتالي إن العنصر المشترك بين جميع البضائع ليس هو العمل في فرع معين من الإنتاج و ليس هو عملا من نوع خاص، بل هو العمل الإنساني المجرد، العمل الإنساني بوجه عام. ففي مجتمع معين تؤلف كل قوة العمل الممتلئة في مجموع قيم كل البضائع قوة عمل إنساني واحدة موحدة. و الدليل على ذلك المليارات من أمثلة التبادل. و هكذا فكل بضاعة مأخوذة بمفردها لا تمثل سوى جزء ما من وقت العمل الضروري اجتماعيا. إن كمية القيمة تحدد بقيمة العمل الضروري اجتماعيا أو بوقت العمل الضروري اجتماعيا لإنتاج بضاعة معينة. أي قيمة استعمالية معينة. "إن المنتجين حين يعتبرون منتجاتهم المختلفة متساوية عند تبادلها يقرون بذلك أن أعمالهم المختلفة متساوية و هم لا يدركون ذلك و لكنهم يفعلونه". لقد قال اقتصادي قديم: إن القيمة هي العلاقة بين شخصين. وكان عليه أن يضيف بكل بساطة الى قوله هذا: علاقة مغلقة بغلاف مادي. ذلك أنه لا يمكن فهم القيمة إلا بالاستناد إلى مجمل علاقات الإنتاج الاجتماعية لتشكيلة تاريخية معينة أي العلاقات التي تظهر عند التبادل هذه الظاهرة الجماهيرية التي تتكرر مليارات المرات. "إن البضائع بوصفها قيما ليست إلا كميات محدودة من وقت العمل المتجمد" ("مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"). و بعد تحليل مفصل للصفة المزدوجة للعمل المجسد في البضائع ينتقل ماركس إلى تحليل أشكال القيمة و العملة (النقد). و المهمة الرئيسية التي يضعها نصب عينيه إذ ذاك هي أن يبحث عن منشأ الشكل النقدي للقيمة و أن يدرس التفاعل التاريخي لتطور التبادل ابتداء من أعمال التبادل الفردية و العرضية ("شكل بسيط منفرد و طارئ للقيمة": كمية معينة من بضاعة ما تبادل مقابل كمية معينة من بضاعة أخرى) حتى الشكل العام للقيمة عندما يبادل عدد من البضائع المختلفة ببضاعة واحدة معينة، حتى الشكل النقدي للقيمة حيث يصبح الذهب بمثابة تلك البضاعة المعينة، بمثابة المعادل العام. إن النقد بوصفه النتاج الأعلى لتطور التبادل و إنتاج البضائع يطمس، يخفي، الصفة الاجتماعية للعمل الفردي أي العلاقة الاجتماعية بين المنتجين المنفردين الذين يرتبطون ببعضهم البعض بواسطة السوق. و يخضع ماركس لتحليل مفصل إلى أقصى حد شتى وظائف النقد. و من المهم الملاحظة هنا أيضا (كما في جميع الفصول الأولى من كتاب "رأس المال") إن الشكل المجرد للعرض الذي يبدو أحيانا استدلاليا فقط يعرض في الواقع مصادر و اوفرة الغنى حول تاريخ تطور التبادل و إنتاج البضائع. "إن النقد يفترض مستوى معيناً من التبادل البضاعي. إن شتى أشكال النقد، بوصفه معادلا بسيط، و وسيلة للتداول، و وسيلة للدفع، و كنزاً مخزون، و نقدا عالميا – تدل بالمقارنة بين تفوق وظيفة على أخرى على مراحل مختلفة جدا من الإنتاج الاجتماعي" ("رأس المال"، المجلد الأول).

## القيمة الزائدة

في درجة ما من تطور إنتاج البضائع يتحول النقد الى رأس مال. لقد كانت صيغة تداول البضائع: ب (بضاعة) – ن (نقد) – ب (بضاعة)، أي بيع بضاعة في سبيل شراء غيرها. أما صيغة رأس المال العامة فهي بالعكس: ن – ب – ن – أي شراء في سبيل بيع (مع ربح). إن هذه الزيادة في القيمة الأولى للنقد الذي وضع قيد التداول هي ما يسميه ماركس "القيمة الزائدة". و "زيادة" المال هذه في التداول الرأسمالي واقع معروف لدى الجميع. إن هذه "الزيادة" بعينها هي التي تحول المال إلى رأسمال بوصفه علاقة إنتاج اجتماعية خاصة محددة تاريخيا. و لا يمكن للقيمة الزائدة أن تنجم عن تداول البضائع لأن هذا التداول لا يعرف سوى تبادل أشياء متعادلة، و لا يمكن لها أيضا أن تنجم عن ارتفاع الأسعار لأن الخسائر و الأرباح لدى كل من الشارين و البائعين تتوازن، و الحال أن الأمر يتعلق بظاهرة اجتماعية وسطية و معقدة لا بظاهرة إفرادية. فمن أجل الحصول على القيمة الزائدة "يجب أن يتمكن صاحب المال من اكتشاف بضاعة في السوق، لها قيمة استعمالية، تتمتع بميزة خاصة هي أن تكون مصدرا للقيمة"، أي بضاعة تكون عملية استهلاكها في الوقت نفسه عملية تخلق قيمة. و بالفعل هذه البضاعة موجودة: إنها قوة العمل الإنساني. إن استهلاكها هو العمل و العمل يخلق القيمة. إن صاحب المال يشتري قوة العمل بقيمتها التي يحددها، كما يحدد قيمة كل بضاعة أخرى، وقت العمل الضروري اجتماعيا لإنتاج البضاعة

(أي نفقات إعالة العامل و عائلته). و حين يشتري صاحب المال قوة العمل يصبح من حقه أن يستهلكها أي أن يجعلها تعمل طوال النهار و لنقل 12 ساعة. و لكن العامل حين يشتغل 6 ساعات (أي وقت العمل "الضروري") يعطي إنتاجا يغطي نفقات إعالته و في الساعات الست الأخرى (أي وقت العمل "الزائد") يعطي إنتاجا "زائدا" لا يدفع الرأسمالي أجره عنه أي يعطي القيمة الزائدة. و بالتالي فمن وجهة نظر عملية الإنتاج يجب أن نميز قسمين في الرأسمال: الرأسمال الثابت الذي ينفق على وسائل الإنتاج (آلات، و أدوات عمل، و مواد أولية، الخ.) و تنتقل قيمته كما هي (دفعه واحدة أو دفعات) إلى المنتج التام الصنع، و الرأسمال المتغير (المتحرك) الذي ينفق على قوة العمل. و قيمة هذا الرأسمال لا تظل ثابتة بل تنمو في عملية الإنتاج، إذ تخلق القيمة الزائدة. و عليه فمن أجل التعبير عن درجة استثمار الرأسمال لقوة العمل يجب مقارنة القيمة الزائدة لا بالرأسمال كله بل بالرأسمال المتغير. إن معدل القيمة الزائدة الاسم الذي أطلقه ماركس على هذه العلاقة سيكون في مثلنا 636 او 100 بالمائة.

إن المقدمة التاريخية لظهور رأسمال هي في الدرجة الأولى تراكم كمية معينة من المال في أيدي عدد من الأفراد في حين بلغ إنتاج البضائع درجة ارتفاع نسبي، و هي، في الدرجة الثانية، وجود عمال "أحرار" من وجهتين: من وجهة أنهم أحرار من كل تضيق و من كل تقيد في بيع قوة عملهم، و أحرار لأنهم لا يملكون أرضا و لا وسائل إنتاج بوجه عام، أي وجود عمال أحرار و غير مقيدين، أي وجود عمال "بروليتاريين" لا يستطيعون العيش بغير قوة عملهم.

إن ازدياد القيمة الزائدة أمر ممكن بفضل وسيلتين أساسيتين: تمديد يوم العمل ("قيمة زائدة مطلقة") و التقليل في يوم العمل الضروري ("قيمة زائدة نسبية"). و عندما يحل ماركس الوسيلة الأولى يرسم لوحة رائعة لنضال الطبقة العاملة في سبيل تقليص يوم العمل و لتدخل سلطة الدولة في سبيل تمديده (من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر) و في سبيل تقليصه (تسريع المصانع في القرن التاسع عشر). و منذ نشر كتاب "رأس المال" قدم تاريخ الحركة العمالية في جميع البلدان المتمدنة في العالم عددا لا يحصى من الوقائع الجديدة التي تبرهن على صدق هذه اللوحة.

إن ماركس عند تحليله القيمة الزائدة النسبية يدرس المراحل التاريخية الأساسية الثلاث لزيادة إنتاجية العمل من قبل الرأسمالية: 1. التعاون البسيط، 2. تقسيم العمل و المانيفاكتورية، 3. الآلات و الصناعة الكبرى. إن العمق الذي يكشف به ماركس الخطوط الأساسية النموذجية لتطور الرأسمالية يظهر فيما يظهر من كون دراسة الصناعة المسماة "الحرفية" في روسيا تقدم أدلة و افرة جدا توضح و تبرز المرحلتين الأولتين من هذه المراحل الثلاث. أما عمل الصناعة الميكانيكية الضخمة الثوري الذي وصفه ماركس في 1867 فقد ظهر خلال نصف القرن المنصرم منذ ذلك الحين في عدة بلدان "جديدة" (روسيا و اليابان و غيرهما).

و بعد فإن الأمر الهام و الجديد إلى أقصى حد عند ماركس هو تحليل تراكم الرأسمال أي تحول قسم من القيمة الزائدة إلى رأسمال و استعماله لا لسد حاجات الرأسمالي الشخصية أو لارضاء نزواته بل للإنتاج من جديد. لقد أشار ماركس إلى خطأ الاقتصاد السياسي الكلاسيكي السابق كله (ابتداء من آدم سميث) الذي يعتبر أن كل القيمة الزائدة التي تتحول إلى رأسمال تذهب إلى الرأسمال المتغير بينما هي في الحقيقة تنقسم إلى وسائل إنتاج و رأسمال متغير. و في عملية تطور الرأسمالية و تحولها إلى الاشتراكية يرتدي ازدياد حصة الرأسمال الثابت بمزيد من السرعة (من أصل مجمل رأس المال) بالقياس إلى حصة الرأسمال، المتغير أهمية أولية.

إن تراكم الرأسمال بتعجيله في إحلال الآلة محل العمال و بخلفه الثراء في قطب، و البؤس في قطب آخر، يخلق أيضا ما يسمى "باحتياطي جيش العمال" أو "الفائض النسبي من العمال" أو "فيض السكان الرأسمالي" الذي يرتدي أشكالا متنوعة إلى أقصى حدود التنوع، و يمكن الرأسمال من أن يوسع الإنتاج بسرعة بالغة. إن هذه الإمكانية إذا نسقت مع التسليف و تراكم الرأسمال بشكل وسائل

الإنتاج تعطينا فيما تعطيه مفتاحا لفهم أزمتها فيض الإنتاج التي كانت في البدء تحصل على نحو دوري في البلدان الرأسمالية مرة في كل عشر سنوات تقريبا و من ثم في فترات أقل تقاربا و أقل ثباتا. و يجب التمييز بين تراكم الرأسمال على أساس الرأسمالية و التراكم المسمى بالتراكم "البدائي" الذي يتصف بفصل التشغيل فصلا عنيفا عن وسائل الإنتاج و يطرد الفلاحين من أراضيهم و بسرقة الأراضي المشاعية و بنظام المستعمرات و بالديون العامة و برسوم الحماية الخ... إن "التراكم البدائي" يخلق البروليتاري "الحر" في قطب، و في قطب آخر القابض على المال، الرأسمالي.

و يصف ماركس "الاتجاه التاريخي للتراكم الرأسمالي" بهذه العبارات المشهورة: "إن انتزاع ملكية المنتجين المباشرين يتم بأشد النزعات إلى الهدم و التدمير بعدا عن الشفقة و بدافع من أحط المشاعر و أحقرها و أشدها تفاهة و حقدا. فالملكية الخاصة المكتسبة بعمل المالك" (عمل الفلاح و الحرفي) "و القائمة إذا جاز التعبير على اندماج التشغيل الفردي المستقل مع أدوات و وسائل عمله تزيحها الملكية الخاصة الرأسمالية التي تركز على استثمار قوة عمل الغير الذي لا يتمتع بغير حرية شكلية ... أما من يتعلق الأمر الآن بانتزاع ملكيته فلم يعد المقصود العامل الذي يدير استثمارا مستقلة بنفسه بل الرأسمالي الذي يستثمر العديد من العمال. إن انتزاع الملكية هذا يتم بفعل القوانين الملازمة للإنتاج الرأسمالي نفسه عن طريق تمرکز الرساميل. إن رأسماليا واحدا يقضي على الكثيرين من أمثاله. و إلى جانب هذا التمرکز أي انتزاع بعض الرأسماليين ملكية عدد كبير من أمثالهم يتطور الشكل التعاوني لسير العمل على مقياس يتسع أكثر فأكثر كما يتطور تطبيق العلم على التكنولوجيا تطبيقا فطنا و متقلا و استثمار الأرض استثمارا منهجيا و تحويل وسائل العمل إلى وسائل للعمل لا يمكن استعمالها إلا استعمالا مشتركا و توفير جميع وسائل الإنتاج باستعمالها كوسائل إنتاج لعمل اجتماعي منسق و دخول جميع الشعوب في شبكة السوق العالمية و تتطور إلى جانب كل ذلك الصفة العالمية للنظام الرأسمالي. و بقدر ما يتناقص باستمرار عدد دهاقنة الرأسمال الذين يغتصبون و يحتكرون جميع منافع عملية التحول هذه بقدر ما يشتد و يستشري البؤس و الظلم و الاستعباد و الانحطاط و الاستثمار و بقدر ما يزداد أيضا تمرد الطبقة العاملة التي تنتقف و تتحد و تنتظم بفعل آلية عملية الإنتاج الرأسمالي نفسها. و هكذا يصبح احتكار الرأسمال قيد لأسلوب الإنتاج الذي نشأ معه و به. إن تمرکز وسائل الإنتاج و جعل العمل الاجتماعيا ينتهيان إلى حد أنهما لا يعودان يتطابقان مع إطارهما الرأسمالي فينفجر. إن الساعة الأخيرة للملكية الخاصة الرأسمالية تدق. إن مغتصبي الملكية تنزع منهم ملكيتهم" ("رأس المال"، المجلد الأول).

ثم إن ما هو جديد و ذو أهمية كبرى إنما هو تحليل ماركس في المجلد الثاني من "رأس المال" لتجديد إنتاج الرأسمال الاجتماعي بمجموعه. و هنا أيضا لا يأخذ ماركس بعين الاعتبار ظاهرة عامة و لا جزءا من الاقتصاد الاجتماعي بل الاقتصاد الاجتماعي بأكمله. إن ماركس عند اصلاحه خطأ الكلاسيكيين المشار إليهم أنفا يقسم مجموع الإنتاج الاجتماعي إلى قسمين كبيرين: أول، إنتاج وسائل الإنتاج و ثاني، إنتاج سلع الاستهلاك. ثم، بالاستناد إلى أرقام يأخذها على سبيل المثال يدرس درسا دقيقا تداول الرأسمال الاجتماعي بمجموعه سواء في تجديد الإنتاج البسيط أم في التراكم. و في المجلد الثالث من "رأس المال" تجد مسألة المعدل الوسطي للربح حلا لها بالاستناد إلى قانون القيمة. و لقد تحقق تقدم كبير في العلم الاقتصادي نظرا إلى أن ماركس يبني تحليله على ظواهر اقتصادية كثيرة على مجموع الاقتصاد الاجتماعي لا على ظواهر منعزلة أو على مظهر المزاحمة الخارجي السطحي الذي غالبا ما يقف عنده الاقتصاد السياسي المبندل أو ما يسمونه 'نظرية الحد الأقصى من النفع' الحديثة. [1] إن ماركس يحلل في الدرجة الأولى مصدر القيمة الزائدة ليدرس بعد ذلك انقسامها إلى ربح و فائدة و ربح عقاري. أما الربح فهو نسبة القيمة الزائدة إلى مجموع الرأسمال الموظف في مشروع ما. و الرأسمال "ذو التركيب العضوي العالي" (أي عندما يتجاوز الرأسمال الثابت الرأسمال المتغير بنسب أعلى من المعدل الاجتماعي الوسطي) يعطي معدلا من الربح أدنى من المعدل الوسطي. و الرأسمال "ذو التركيب العضوي المنخفض" يعطي معدلا من الربح أعلى من المعدل الوسطي. إن تراكم الرساميل و انتقالها الحر من فرع إلى آخر يحملان في الحالتين معدل الربح إلى المعدل الوسطي. إن مجموع قيم جميع البضائع في مجتمع معين يوازي مجموع اثمان البضائع ولكن في كل مشروع بمفرده و بفعل المزاحمة تباع البضائع لا

بحسب قيمتها بل بسعر الإنتاج ( او السعر الإنتاجي) الذي يعادل الرأسمال المصروف مضافا اليه الربح الوسطي.

وهكذا فان انحراف السعر عن القيمة و التوزيع المتساوي للربح – هذا الواقع الذي لا يقبل الجدل و المعروف لدى الجميع – يوضحه ماركس تمام الأيضاح بالاستناد الى قانون القيمة اذ ان مجموع قيم جميع البضائع يعادل مجموع اسعارها. ولكن الطريق من القيمة (الاجتماعية) الى الاسعار (الافرادية) ليس بسيطا و مباشرا بل طريق معقد جدا. فمن الطبيعي تماما في مجتمع يكون فيه منتجو البضائع متفرقين و غير مرتبطين فيمن بينهم الا بواسطة السوق ان لا يسري مفعول القوانين الا بصورة وسطية اجتماعية عامة مع ازالة الانحرافات الافرادية من هذه الجهة و تلك.

ان ازدياد إنتاجية العمل يعني نمو اسرع في الرأسمال الثابت بالقياس الى الرأسمال المتغير. ولكن لما كانت القيمة الزائدة لا ترتبط الا بالرأسمال المتغير اصبح من المفهوم ان يميل معدل الربح (اي نسبة القيمة الزائدة الى مجموع الرأسمال لا الى القسم المتغير منه فقط) الى الهبوط. ان ماركس يحلل تحليلا دقيقا جدا هذا الميل كما يحلل الظروف التي تخفيه او تعاكسه. ودون ان نتوقف عند الفصول العظيمة الالهية في المجلد الثالث المكرسة لرأسمال الربا و الرأسمال التجاري و الرأسمال النقدي ننتقل الى الجزء الاكثر اهمية الا وهو نظرية الربح العقاري. لما كانت مساحة الارض محدودة و يشغلها تماما في البلدان الرأسمالية ملاكون فرديون اصبح ثمن إنتاج المنتجات الزراعية لا يتحدد بواسطة نفقات الإنتاج على ارض وسطية بل على ارض من النوع الاسوا و لا بواسطة الشروط الوسطية لنقل المنتجات الى السوق بل تبعا للشروط الاقل ملاءمة. ان الفرق بين هذا الثمن و ثمن الإنتاج على الارض اجود نوعا (او في شروط احسن) يعطي الربحي الفرقى (المتفاوت). ان ماركس بالاستناد الى تحليل مفصل لهذا الربح يبين فيه ان هذا الربح ينجم عن التفاوت (الفرق) في جودة الاراضي و عن تفاوت (فرق) الرساميل الموظفة في الزراعة قد اوضح وضوحا تاما (انظر أيضا "نظريات القيمة الزائدة" حيث يستحق انتقاد رودبرتوس اهتماما خاصا) خطأ ريكاردو الذي يزعم ان الربح الفرقى لا يحصل الا بالانتقال الدائم من ارض اكثر جودة الى ارض اقل جودة. فالامر على خلاف ذلك: فان تغييرات معاكسة قد تحدث أيضا. فالاراضي من فئة معينة تتحول الى ارض من فئة اخرى (بفعل ارتفاع مستوى الزراعة و نمو المدن الخ.). و القانون الشهير "قانون تناقص خصب التربة" يبدو بمثابة خطأ عميق يرمي الى القاء عيوب الرأسمالية و حدودها الضيقة و تناقضاتها على كاهل الطبيعة. ثم ان تساوي الربح في جميع فروع الصناعة و الاقتصاد الوطني بوجه عام يفترض حرية تامة في المزامحة و حرية نقل الرأسمال من فرع الى اخر. و لكن الملكية الخاصة للارض تخلق احتكارا و عقبة في وجه حرية النقل هذه. ان منتجات الزراعة التي تتميز بتركيب منخفض في رأسمالها و التي تعطي بالتالي معدلا اعلى للربح الفردي لا تدخل بفعل هذا الاحتكار في عملية تساوي معدل الربح الحرة تماما. فالمالك الذي يحتكر الارض يتمكن من ابقاء السعر في معدل اعلى من الوسط و هذا السعر الاحتكاري يخلق الربح المطلق. ان الربح الفرقى لا يمكن الغاؤه في النظام الرأسمالي و عكسا لذلك يمكن الغاء الربح المطلق بتأميم الارض مثلا عندما تصبح الارض ملكا للدولة. ان انتقال الارض هذا الى الدولة يعني تقويض احتكار الملاكين الفرديين و يعني أيضا حرية في المزامحة اكثر انسجاما و اكتمالا في الزراعة. و لهذا كما يقول ماركس تقدم البرجوازيون الراديكاليون اكثر من مرة في التاريخ بهذا المطلب البرجوازي التقدمي القائل بتأميم الارض. هذا المطلب الذي يخيف مع ذلك اكثر البرجوازية لانه "يمس" عن قرب احتكارا اخر له في ايامنا هذه اهمية خاصة و "حساسية" خاصة و هو احتكار وسائل الإنتاج بوجه عام. (ان هذه النظرية حول الربح الوسطي للرأسمال و حول الربح العقاري المطلق قد عرضها ماركس بأسلوب رائع بسيط و مختصر وواضح في رسالته الى انجلز بتاريخ 2 اب/اوت سنة 1862. انظر "المراسلات"، المجلد الثالث، ص 77-81، و رسالته المؤرخة في 9 اب/اوت سنة 1862، ص 86-87، المصدر نفسه). و من الالهية بمكان أيضا الاشارة في تاريخ الربح العقاري الى تحليل ماركس الذي يبين تحول الربح-العمل (عندما يخلق الفلاح نتاجا اضافيا بعمله في ارض الملاك) الى ربح-إنتاج او الى ربح عيني (عندما يخلق الفلاح على ارضه نتاجا اضافيا يقدمه للملاك بموجب "الاكراه غير الاقتصادي") ثم الى ربح نقدي (اذ اذ يتحول هذا الربح العيني الى نقد – "اوبروك" اي اتاوة في روسيا القديمة – بسبب تطور إنتاج البضائع) و اخيرا الى ربح رأسمالي عندما يحل محل الفلاح في الزراعة رب عمل يزرع الارض بالجوء الى العمل الماجور. و لنشر بصدد هذا التحليل "لتولد الراع العقاري الرأسمالي" الى جملة

من افكار ماركس العميقة (ذات الاهمية الخاصة بالقياس الى البلدان المتاخرة كروسيا مثلا) حول تطور الرأسمالية في الزراعة. "مع تحول الربيع العيني الى ربيع نقدي، تتكون بالضرورة، في الوقت نفسه و حتى مسبق، طبقة من المياومين الذين لا يملكون و يعملون بالاجرة. و في الوقت الذي تتكون فيه هذه الطبقة التي لم تكن ظهرت الا ظهورا متفرقا يكون الفلاحون الميسورون الملمزون بدفع اتاوة قد اعتادوا بالطبع استثمار بعض الاجراء الزراعيين لحسابهم الخاص كما كان يحدث تماما في النظام الاقطاعي، حيث كان للفلاحين الاقنان الميسورين اقنان اخرون أيضا. و من هنا كانت تتوافر لهم امكانية جمع الثروة شيئا فشيئا و تحويل انفسهم الى رأسماليين مقبلين.

وهكذا تتكون بين مالكي الارض القدماء، ممن يديرون استثمارات مستقلة، بيئة تنبت مستاجري الاراضي الرأسماليين الذين يرتبط تطورهم بالتطور العام للإنتاج الرأسمالي خارج الزراعة" ("رأس المال"، المجلد الثالث، 2، ص 332)... "ان انتزاع ملكية قسم من سكان الارياف و طردهم من الريف لا "يحرران" عمالا ووسائل للعيش و العمل لهم من اجل الرأسمال الصناعي و حسب بل يخلقان السوق الداخلية أيضا" ("رأس المال"، المجلد الاول، 2، ص 778). ان املاق و خراب سكان الارياف يسهمان بدورهما في انشاء جيش احتياطي من العمال للرأسمال. لهذا في كل بلد رأسمالي "يوجد دائما قسم من سكان الارياف يوشك على الدوام ان يتحول الى سكان مدن او الى سكان يعملون في الصناعة (اي غير زراعيين). وهذا المورد لتزايد السكان النسبي لا ينضب ابدا... فالعامل الزراعي مكروه على تقاضي الحد الأدنى من الاجرة و يقف دائما على احدى رجليه في مستنقع الاملاق" ("رأس المال"، المجلد الاول، 2، ص 668). ان ملكية الفلاح الخاصة للاراض التي يزرعها تؤلف اساس الإنتاج الصغير تؤلف الشرط الذي يسمح لهذا الإنتاج بان يزدهر و ياخذ شكلا كلاسيكيا. و لكن هذا الإنتاج الصغير لا ينسجم الا مع الاطارات البدائية الضيقة للإنتاج و المجتمع. ففي النظام الرأسمالي "لا يتميز استثمار الفلاحين عن استثمار البروليتاريا الصناعية الا من حيث الشكل. فالمستثمر هو اي الرأسمال كلا بمفرده يستثمرون الفلاحين كلا بمفرده بواسطة الرهن و الربا. ان طبقة الرأسماليين تستثمر طبقة الفلاحين بواسطة الضرائب" ("نضال الطبقات في فرنسا"). "ان ارض الفلاح الصغيرة لم تعد سوى ذريعة تتيح للرأسمال ان يجني من الارض ربحا و فائدة و ريعا و ان يترك لمالك الارض نفسه امر الاهتمام بالطريقة التي يراها ناجحة للحصول على اجرته" ("18 برومير"). بل ان الفلاح يقدم عادة الى المجتمع الرأسمالي اي الى طبقة الرأسمالي قسما من اجرته و يقع على هذا النحو "في حالة المكثري الارلندي مع احتفاظه بمظهر المالك الفردي" ("نضال الطبقات في فرنسا"). فما اذن "احد الاسباب التي تؤدي الى ان يكون سعر الحبوب في البلدان التي تسود فيها الملكية الصغيرة للارض اقل منه في البلدان ذات اسلوب الإنتاج الرأسمالي؟" ("رأس المال"، المجلد الثالث، 2، ص 340) ذلك ان الفلاح يقدم مجانا الى المجتمع (اي طبقة الرأسماليين) قسما من نتاجه الزائد. "ان هذا السعر المنخفض (اي سعر الحبوب و بقية المنتجات الزراعية) ينجم اذن عن فقر المنتجين و لا ينجم ابدا عن إنتاجية عملهم". ("رأس المال"، المجلد الثالث، 2، ص 340). فان الملكية الزراعية الصغيرة التي هي الشكل العادي للإنتاج الصغير تتدهور في النظام الرأسمالي و تبيد و تهلك. "ان الملكية الصغيرة للارض تحول بحكم طبيعتها دون تطور قوى العمل الإنتاجية الاجتماعية و اشكال العمل الاجتماعية و تمركز الرساميل الاجتماعي و تربية المواشي على نطاق كبير و تطبيق العلم تطبيقا مطردا. ان الربا و نظام الضرائب يحتمان خراب الملكية الزراعية الصغيرة في كل مكان. فينتزع من الزراعة الرأسمال الموظف لשרاء الارض. و تجزا وسائل الإنتاج الى ما لانهاية و يتبعثر المنتجون". (ان التعاونيات اي جمعيات الفلاحين الصغار التي تقوم باعظم دور تقدمي برجوازي يمكنها فقط ان تضعف هذا الاتجاه دون ان تمحوه و يجب ان لا ننسى أيضا ان هذه التعاونيات تعطي كثيرا للفلاحين الميسورين و لكنها تعطي قليلا جدا لجمهور الفلاحين الفقراء او لا تعطيه شيئا تقريبا ثم ان الامر ينتهي بهذه الجمعيات الى ان تستثمر بنفسها العمل المجاور). "فهناك تمييز هائل للقوة الإنسانية. ان تفاقم شروط الإنتاج تفاقما مطردا و ارتفاع اسعار وسائل الإنتاج هما قانونان ملازمان للملكية الصغيرة المجزأة". ("رأس المال المجلد الثالث). ففي الزراعة كما في الصناعة لا يظهر تحول الرأسمالية اسلوب الإنتاج على حساب "شهادة المنتج". "ان تبعثر العمال الزراعيين على مساحات كبرى يحطم قوة مقاومتهم في حين يزيد التجمع قوة مقاومة عمال المدن. و في الزراعة الحديثة الرأسمالية كما في الصناعة الحديثة يتم التوصل الى نمو قوة العمل الإنتاجية و الى زيادة قابليته للحركة عن طريق تحطيم قوة العمل بالذات و استنفادها. و من جهة اخرى كل تقد للزراعة الرأسمالية هو تقدم لا في فن نهب الشغل فحسب بل في فن نهب الأرض أيضا... فالإنتاج الرأسمالي اذن لا يطور التكنيك و تنسيق عملية الإنتاج الاجتماعية الا باستنزافه في الوقت نفسه الينبوعين اللذين تنبثق منهما كل ثروة: الارض و الشغل" ("رأس المال"، المجلد الاول، نهاية الفصل الثالث عشر).



نرى مما تقدم أن ماركس يخلص إلى أن المجتمع الرأسمالي سيتحول حتما إلى مجتمع اشتراكي وهو يستخلص ذلك استخلاصا تاما و على وجه الحصر من القانون الاقتصادي لحركة المجتمع الحديث. إن جعل العمل اجتماعيا [نص مفقود]. إن هذه العملية التي تتقدم بسرعة متزايدة أبدا و بألوف الأشكال و التي ظهرت بوجه خاص خلال النصف القرن الذي انقضى على وفاة ماركس في توسع الصناعة الكبيرة و الكارتيلات و السديكات و التروستات الرأسمالية و في التطور الأسطوري لنسب رأس المال المالي و قوته ذلك هو الأساس المادي الرئيسي لمجيء الاشتراكية الذي لا مناص منه. إن المحرك الفكري و المعنوي و العامل المادي لهذا التحول إنما هو البروليتاريا التي تتفقه الرأسمالية نفسها. إن نضال البروليتاريا ضد البرجوازية، الذي يتخذ أشكالا مختلفة و محتوى يغتنى باستمرار ، يصبح حتما نضالا سياسيا يرمي إلى استيلاء البروليتاريا على الحكم السياسي ("ديكتاتورية البروليتاريا"). و لابد لعملية جعل الإنتاج اجتماعيا من أن تجعل وسائل الإنتاج ملكية اجتماعية و أن تؤدي إلى "انتزاع الملكية من مغتصبيها". إن التزايد الضخم في إنتاجية العمل و إنقاص يوم العمل و إحلال العمل التعاوني المتقن محل بقايا الإنتاج الصغير البدائي المبعثر و على أنقاضه تلك هي النتائج المباشرة لهذا التحول. إن الرأسمالية تقطع نهائيا الروابط التي تصل الزراعة بالصناعة و لكنها في الوقت نفسه تهيب بتطورها الأكثر تقدما العناصر الجديدة لهذا الترابط و تهيب اتحاد الصناعة بالزراعة على أساس تطبيق العلم تطبيقا واعي، و على أساس تنسيق العمل التعاوني و توزيع جديد للسكان (وضع حد لعزلة الريف عن العالم و ما يعانیه من تخلف و عزلة و توحش، و كذلك لتكدس عدد ضخم من السكان في المدن الكبيرة على نحو غير طبيعي). إن الأشكال العليا للرأسمالية الحديثة تهيب شكلا جديدا للعائلة و شروطا جديدة للمرأة و لتربية الأجيال الناشئة. فإن عمل النساء و الأولاد و إحلال العائلة البطريركية بسبب النظام الرأسمالي يأخذان حتما في المجتمع الحديث أكثر الأشكال فظاعة و أشدها تدميرا و تنفييرا. ومع ذلك "الصناعة الكبيرة بإعطائها النساء و الأحداث و الأولاد من الجنسين دورا حاسما في عملية الإنتاج المنظمة اجتماعيا خارج النطاق العائلي تخلق أساسا اقتصاديا جديدا لشكل أعلى من أشكال العائلة و العلاقات بين الجنسين. و من الخرق طبعاً أن يعتبر بمثابة شيء مطلق سواء الشكل الجرمانى المسيحي للعائلة أم الأشكال القديمة الرومانية و اليونانية و الشرقية التي تؤلف من جهة أخرى سلسلة واحدة من التطورات التاريخية المتعاقبة. و من البديهي أيضا أن تركيب الهيئة العمالية المختلطة عن طريق إجتماع أفراد من الجنسين و من مختلف الأعمار – مع كونه في شكله الرسمي العفوي اللفظ حيث العامل موجود من أجل عملية الإنتاج و ليس عملية الإنتاج موجودة من أجل العامل يؤلف بنوعاً موبوءاً للإفساد و الإستعباد – إن هذا التركيب يجب أن يتحول بالعكس في ظروف مؤاتية [نص مفقود] ينبوع إلى التطور الانساني" ("رأس المال" المجلد الأول نهاية الفصل الثالث عشر). إن نظام المصنع يبين لنا "بذور التربية في المستقبل هذه التربية التي ستوحد العمل المنتج لجميع الأولاد فوق سن معينة مع التعليم و الرياضة و ذلك ليس فقط بمثابة طريقة تهدف إلى زيادة الإنتاج الاجتماعي بل بمثابة الطريقة الوحيدة الفريدة لإنتاج رجال متطورين من كل النواحي" (المصدر نفسه). وعلى الأساس التاريخي نفسه تضع اشتراكية ماركس قضيتي القومية و الدولة لا لتفسير الماضي و حسب بل لتحديد التنبؤات بجرأة و للقيام بعمل مقدم في سبيل تحقيقها. إن الأمم هي الإنتاج و الشكل الحتميان للمرحلة البرجوازية من التطور الاجتماعي. إن الطبقة العاملة لم تستطع أن تقوي نفسها و تنتضج و تتطور إلا "بتكوين نفسها ضمن الحدود القومية" دون أن تكون "قومية" ("و إن لم يكن اطلاقاً بالمعنى البرجوازي للكلمة"). و الحال أن تطور الرأسمالية لا ينفك يحطم الحدود القومية و يهدم العزلة القومية يحل التناحرات الطبقة محل التناحرات القومية. و لهذا يكون من الصحيح تماما أن "ليس للعمال وطن" في البلدان الرأسمالية المتطورة و أن "توحيد جهود" العمال في البلدان المتمدنة على الأقل "هو أحد الشروط الأولية لتحرر البروليتاريا" ("البيان الشيوعي"). أما الدولة، هذا العنف المنظم، فقد ظهرت ظهورا حتميا عند درجة معينة من تطور المجتمع، حينما أصبح المجتمع منقسما إلى طبقات، لا يمكن التوفيق بينها و لم يعد في طوقه أن يعيش بدون "سلطة" موضوعة كما يزعم فوق المجتمع و مفصولة عنه إلى حد ما. و هذه الدولة التي ولدت في قلب التناحرات الطبقة تصبح "دولة الطبقة الأقوى الطبقة المسيطرة اقتصاديا و التي تغدو أيضا بفضل الدولة الطبقة المسيطرة سياسي، و هكذا تكتسب وسائل جديدة لاخضاع الطبقة المظلومة و استثمارها. و على هذا النحو كانت الدولة القديمة قبل كل شيء دولة ملاكي عبيد لاخضاع العبد كما أن الدولة الاقطاعية كانت جهاز النبلاء لاخضاع الفلاحين الأفتان و كما أن الدولة التمثيلية الحديثة هي أداة استثمار الرأسماليين للعمال الماجورين" (انجلس في كتاب "أصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة" حيث عرض وجهات نظره و وجهات نظر ماركس). وحتى الشكل الأوفر حرية و الأكثر تقدما للدولة البرجوازية و نعني به الجمهورية الديمقراطية لا يلغي أبدا هذا الواقع بل يعدل شكله فقط (ارتباط الحكومة بالبورصة، رشوة الموظفين و الصحافة، على نحو مباشر و غير مباشر الخ). إن الاشتراكية إذ تقود إلى إلغاء الطبقات تقود بالتالي إلى إلغاء الدولة. "إن أول عمل تثبت به الدولة فعلا أنها تمثل المجتمع بأسره – أي الاستيلاء على وسائل الإنتاج في صالح المجتمع بأسره – هو في الوقت نفسه آخر عمل خاص بها بوصفها دولة. إن تدخل سلطة الدولة في العلاقات الاجتماعية يصبح نافلا في ميدان بعد آخر ثم يتلاشى من تلقاء نفسه. و محل حكم الأشخاص تحل إدارة الأشياء و قيادة عملية الإنتاج. إن الدولة "لا تلغى"، إنها "تضمحل" (انجلس، "ضد دوهرنغ"). "إن المجتمع الذي سينظم الإنتاج على أساس المشاركة الحرة المتساوية بين المنتجين سيعيد كل آلة الدولة إلى المكان اللائق بها: متحف الآثار إلى

جاناب المغزل اليدوي و الفأس البرونزية (انجلس، "أصل العائلة و الملكية الخاصة و الدولة").

و أخيرا من الأهمية بمكان أن نشير في معرض موقف اشتراكية ماركس من الفلاح الصغير الذي سيبقى موجودا أيضا في مرحلة انتزاع الملكية من مغتصبيها إلى هذا البيان من انجلس الذي يعبر عن رأي ماركس: "عندما تصبح سلطة الدولة في أيدينا لن يكون بالإمكان أن يخطر ببالنا أن ننزع ملكية الفلاحين الصغار بعنف (بتعويض أو بغير تعويض سيان) مثلما سنكون مضطرين لأن نفعل بالنسبة لكبار الملاكين العقاريين. إن مهمتنا تجاه الفلاح الصغير ستكون قبل كل شيء توجيه إنتاجه الخاص في السبيل التعاوني، لا بواسطة العنف، بل عن طريق المثل و تقديم مساعدة المجتمع لهذا الغرض. و من المؤكد أن سيكون لدينا ما يكفي من الوسائل لاقناع الفلاح بجميع المزايا التي يتسم بها هذا التحول و التي لا بد من توضيحها له منذ الآن". (انجلس، "مسألة الفلاحين في فرنسا و ألمانيا". طبع الكسيف، صفحة 17. الترجمة الروسية بأغلاط. النص الاصيلي في جريدة (Neue Zeit).

1. نظرية الاستعمال الجانبي هي نظرية اقتصادية برزت في سبعينات القرن التاسع عشر لتعارض نظرية ماركس عن القيمة. فحسب هذه النظرية يتم تقدير قيمة البضائع حسب منفعتها و ليس حسب كمية العمل الاجتماعي المبذول لإنتاجها.

## تكتيك نضال البروليتاريا الثوري

لما كان ماركس قد أبصر جليا منذ 1844-1845 إحدى النواقص الأساسية في المادية القديمة و هي أن المادية القديمة لم تعرف كيف تفهم شروط النشاط العملي الثوري و لا أن تقدر أهميته فإنه إلى جانب أعماله النظرية قد أعار طوال حياته انتباها دائبا لمسائل تكتيك النضال البروليتاريا الطبقي. و من هذه الناحية تقدم جميع مؤلفات ماركس مراجع غنية و لاسيما مراسلاته مع انجلس المنشورة عام 1913 في أربع مجلدات. إن هذه المراجع ما تزال بعيدة عن أن تكون كلها مجموعة و مصنفة و مدروسة و معمقة. ولهذا يترتب علينا أن نكتفي هنا بأعم الملاحظات و أوجزها مع الإشارة إلى أن ماركس كان يعتبر بحق أن المادية إذا جرت من هذا الجانب كانت غير كاملة و وحيدة الجانب و عديمة الحيوية لقد كان ماركس يحدد المهمة الأساسية لتكتيك البروليتاريا بالتوافق الدقيق مع جميع مقدمات مفهومه المادي-الديالكتيكي. إن حساب الحساب بشكل موضوعي لمجموع العلاقات بين جميع الطبقات في مجتمع معين دون استثناء و بالتالي حساب الحساب للدرجة الموضوعية لتطور هذا المجتمع و للعلاقات بينه و بين سائر المجتمعات يمكن له وحده أن يكون أساسا لتكتيك صحيح للطبقة المتقدمة. و عليه ينظر إلى جميع الطبقات و جميع البلدان لا من حيث مظهرها الثابت بل من حيث مظهرها المتحرك أي لا في حالة الجمود بل في حالة الحركة (الحركة التي تنبثق قوانينها من الشروط الاقتصادية لمعيشة كل طبقة). و الحركة بدورها ينظر إليها لا من وجهة نظر الماضي و حسب بل من وجهة نظر المستقبل أيضا و فضلا عن ذلك ينظر إليها لا وفقا للمفهوم المبتذل "للتطوريين" الذين لا يلاحظون سوى التحولات البطيئة بل وفقا للديالكتيك. فقد كتب ماركس إلى انجلس يقول: "في التطورات التاريخية الكبرى ليست عشرون سنة أكثر من يوم واحد مع أنه قد تأتي فيما بعد أيام تضم في أحشائها عشرين سنة" ("المراسلات"، المجلد الثالث، صفحة 167). و في كل درجة من التطور و في كل لحظة يجب على تكتيك البروليتاريا أن يأخذ بعين الاعتبار هذا الديالكتيك الحتمي موضوعيا لتاريخ الإنسانية: و ذلك من جهة باستخدام مراحل الركود السياسي أي مراحل التطور "الهادئ" - كما يزعم- الذي يتقدم بخطى السلفاة من أجل تطوير الوعي و القوى و القدرة النضالية لدى الطبقة المتقدمة و من جهة أخرى بالاتجاه في كل هذا العمل نحو "الهدف النهائي" لحركة هذه الطبقة بجعلها قادرة على أن تحل عمليا المهمات الكبرى للأيام العظيمة "التي تضم في أحشائها عشرين سنة". ثمة بحثان لماركس بهذا الصدد يرتديان أهمية خاصة. الأول في كتابه "بؤس الفلسفة" و يتعلق بنضال البروليتاريا الاقتصادي و بمنظمتها الاقتصادية و الآخر في "البيان الشيوعي" و يتعلق بمهمات البروليتاريا السياسية. أما الأول فقد ورد كما يلي: "إن الصناعة الكبرى تجمع في مكان واحد جمهورا من الناس لا يعرف بعضهم بعضا. و المزامحة تفرق مصالحهم. و لكن وقاية الأجرة هذه المصلحة المشتركة بينهم ضد سيدهم تجمعهم في فكرة واحدة فكرة المقاومة و التحالف... إن التحالفات تبدأ منعزلة ثم تتألف في جماعات و بوجه الرأسمال المتجمع على الدوام يغدو حفاظ العمال

على اتحاداتهم أهم بنظرهم من وقاية الأجرة... و في هذا النضال – هذه الحرب الأهلية الحقيقية – تتجمع و تتطور جميع العناصر الضرورية لمعركة مقبلة. و عند بلوغ هذه النقطة يأخذ التحالف طابعا سياسيا". إن لدينا هنا برنامج و تكتيك النضال الاقتصادي و الحركة النقابية لوضع عشرات السنين لكل المرحلة الطويلة من تحضير قوى البروليتاريا "المعركة مقبلة". و تجدر المقارنة بين ذلك و بين إشارات ماركس و انجلس العديدة المبنية على تجربة الحركة العمالية الانجليزية و التي تبين كيف أن "الازدهار" الصناعي يستثير محاولات "الشراء العمال" ("المراسلات، المجلد الأول، صفحة 136)، و صرفهم عن النضال، و كيف أن هذا الازدهار "يفسد معنويات العمال" بوجه عام (المجلد الثاني صفحة 218) و كيف أن البروليتاريا الانجليزية "تتبرجز" و كيف أن "الأمة الأكثر برجوازية بين الأمم" (الأمة الانجليزية) "تبدو كأنها تريد أخيرا أن يكون لديه، إلى جانب البرجوازية، أرسنقراطية برجوازية و بروليتاريا برجوازية" (المجلد الثاني، صفحة 290)، و كيف أن "الطاقة الثورية تتلاشى و تزول لدى البروليتاريا الانجليزية" (المجلد الثالث صفحة 124) و كيف ينبغي الانتظار زمانا قد يطول إلى هذا الحد أو ذاك "لكي يتخلص العمال الانجليز مما يبدو عليهم من الفساد البرجوازي" (المجلد الثالث صفحة 127)، و كيف أن "حمية الشارتيين" [1] مفقودة في الحركة العمالية الانجليزية (1866، المجلد الثالث، صفحة 305)، و كيف أن الزعماء العماليين الانجليز يشكلون نموذجا وسطيا "بين البرجوازيين الراديكاليين و العمال" (تلميح إلى هوليكو المجلد الرابع صفحة 209)، و كيف "أن العامل الانجليزي لن يتحرك" بسبب احتكار انجلترا و ما دام هذا الاحتكار قائما (المجلد الرابع، صفحة 433). إن تكتيك النضال الاقتصادي بالارتباط مع السير العام (و مع النتيجة العامة) للحركة العمالية مدروس هنا من وجهة نظر واسعة شاملة دياكتيكية على نحو رائع و ثورية حقا.

أما "البيان الشيوعي" فقد صاغ لتكتيك النضال السياسي المبدأ الأساسي التالي للماركسية: "إنهم (أي الشيوعيين) يكافحون في سبيل مصالح الطبقة العاملة و أهدافها المباشرة و لكنهم يدافعون في الوقت نفسه عن مستقبل الحركة". و من أجل هذا ساند ماركس في 1848 حزب "الثورة الزراعية" بولونيا (أي الحزب الذي أثار انتفاضة كراكوفيا في 1846). و في 1848-1849 ساند ماركس في ألمانيا الديمقراطية الثورية المتطرفة و لم يتراجع قط عما قاله حينذاك عن التكتيك. و كان يعتبر البرجوازية الألمانية بمثابة عنصر "كان ينجح منذ البداية إلى خيانة الشعب" (فقط التحالف مع جماهير الفلاحين كان بوسعهم ان يتيح للبرجوازية بلوغ أغراضها كاملة) "و إلى إجراء مساومة مع الممثلين المتوججين للمجتمع القديم". و فيما يلي التحليل النهائي الذي أعطاه ماركس عن وضع البرجوازية الألمانية الطبقي في مرحلة الثورة البرجوازية الديمقراطية مع العلم أن هذا التحليل هو نموذج للمادية التي تنظر إلى المجتمع من حيث حركته و ليس فقط من جانب الحركة المتجه نحو الماضي... "عادمة الإيمان بنفسها (أي البرجوازية الألمانية – المعرب) عادمة الإيمان بالشعب، مندمرة من الكبار، مرتجفة أمام الصغار... خائفة من الإعصار العالمي... فاقدة العزيمة في أي مكان منتحلة في كل مكان... دون مبادرة... كعجوز تنيخ عليه اللعنة محكوم عليه بحكم مصالح شيخوخته بقيادة الاندفاعات الفتية الأولى لشعب فتى قوي" ("الجريدة الرينانية الجديدة"، 1848. انظر "التركة الأدبية"، المجلد الثالث، صفحة 212). و بعد زهاء عشرين سنة كتب ماركس في رسالة إلى انجلس (المجلد الثالث صفحة 224) إن فشل ثورة 1848 سببه أن البرجوازية كانت قد فضلت المسالمة مع العبودية على مجرد إمكانية الكفاح في سبيل الحرية. و عندما اختتمت مرحلة ثورات 1848-1849، هب ماركس ضد كل محاولة للعب بالثورة (النضال ضد شاير و ويلبخ) مصرا على معرفة العمل في المرحلة الجديدة التي تهيء ثورات جديدة تحت ستار "سلم" ظاهري. إن تعليق ماركس التالي حول الوضع في ألمانيا في 1856 في مرحلة الرجعية الأشد اسودادا يبين بآية روح كان ماركس يرغب في ان يتم هذا العمل: "سيتوقف كل شيء في ألمانيا على امكانية دعم الثورة البروليتارية، بطبعة م، جديدة، لحرب الفلاحين" ("المراسلات" المجلد الثاني صفحة 108). و طالما لم تنته الثورة الديمقراطية (البرجوازية) في ألمانيا وجه ماركس كل انتباهه فيما يتعلق بتكتيك البروليتاريا الاشتراكية إلى تطوير طاقة الفلاحين الديمقراطية. و كان يعتبر ان موقف لاسال هو "موضوعيا خيانة للحركة العمالية في صالح بروسيا" (المجلد الثالث صفحة 210) و ذلك بالضبط لان لاسال يتسامح مع الملاكين العقاريين و التعصب القومي البروسي. و قد كتب انجلس في 1865 أثناء تبادل وجهات النظر مع ماركس بصدد مشروع بيان مشترك في الصحف يقول: "في بلد زراعي، من السفالة ان يصار باسم العمال الصناعيين إلى تسديد الضربة إلى البرجوازية فقط دون الإشارة إلى استثمار العمال الزراعيين على الطريقة البطريركية (الابوية) و "تحت ضربات العصي" من جانب النبلاء الاقطاعيين" (المجلد الثالث، صفحة 217). و في الحقبة الممتدة من 1863 إلى 1870 حينما كانت مرحلة الثورة البرجوازية الديمقراطية في ألمانيا تشرف على نهايتها هذه المرحلة التي كانت تتنازع فيها طبقات المستثمرين في بروسيا و النمسا حول طرق انجاز هذه الثورة من فوق لم يكتف ماركس بشجب لاسال لمدعيته مع بيسمارك انما كان يصلح ايضا ليبكنخت الذي وقع في "حب النمسا" و اخذ يدافع عن الخصائص المحلية. و كان ماركس يلح على انتهاز تكتيك ثوري يكافح بلا هوادة سواء بيسمارك ام محبي النمس، تكتيك لا يتكيف "للمنتصر" – اليونكر البروسي – بل يحدد النضال الثوري ضده فور، و بالضبط في الميدان الناجم عن انتصارات بروسيا العسكرية ("المراسلات"، المجلد الثالث، ص ص 134، 136، 147، 149، 179، 204، 210، 215، 318، 437، 440 – 441) و في رسالة الأومية الشهيرة الصادرة في 9 أيلول/سبتمبر 1870، حذر ماركس البروليتاريا الفرنسية من انتفاضة قبل الأوان، و لكن عندما قامت هذه الانتفاضة مع ذلك (1871) حيا ماركس بحماسة المبادرة الثورية لدى الجماهير "التي تصعد لمهاجمة السماء" (رسالة ماركس إلى كوغلان). ان هزيمة الحركة الثورية في هذا الوضع مثلها في العديد من الاوضاع الاخرى قد كانت من وجهة نظر مادية ماركس الديالكتيكية شرا اهنون بالنسبة إلى مجمل سير النضال البروليتاري و بالنسبة إلى نتيجة هذا النضال من شر اخلاء الموقع للمحتل و الاستسلام دون قتال ان مثل هذا الاستسلام كان من شأنه أن يثبت من معنويات البروليتاريا و ان يقوض كفايتها. ان ماركس، مع تقديره التام لاستخدام وسائل النضال الشرعية في مراحل الركود السياسي و سيطرة الشرعية البرجوازية، قد شجب بشدة بالغة في 1877-1878 بعد سن القانون الاستثنائي ضد الاشتراكيين "الجملة الثورية" لدى موست.

وحمل بنفس الشدة، ان لم يكن اكثر، على الانتهازية التي كانت قد استولت موقتا حينذاك على الحزب الاشتراكي-الديمقراطي الرسمي الذي لم يعرف كيف يعطي الدليل فورا على الثبات و الصلابة و الروح الثورية و كيف يظهر جوابا على القانون الاستثنائي استعداده للانتقال إلى النضال السري. ("المراسلات"، المجلد الرابع، ص ص 397، 303، 418، 422، 424. [7]. راجع ايضا رسائل ماركس إلى سورجي).

---

1. **التشارتية:** أول حركة ثورية جماهيرية للعمال البريطانيين في ثلاثينات و أربعينات القرن التاسع عشر. قدم التشاريون عريضتهم للبرلمان تحت اسم "عقد الشعب" وكافحوا من أجل المطالب الواردة في العقد: الاقتراع العام إلغاء أهلية الملكية بالنسبة للمترشحين للبرلمان الخ. وقد انتظمت اجتماعات و مظاهرات جماهيرية ضمت الملايين من العمال و الحرفيين في كامل أنحاء البلاد امتدت لسنوات. 32. الاشارة هنا إلى الانتفاضة الديمقراطية للتحرر الوطني في جمهورية كراكاو التي وضعت سنة 1815 تحت السيطرة المشتركة للنمسا و بروسيا و روسيا. قام المتمردون بتكوين حكومة وطنية أصدرت بيانا يعلن إلغاء الخدمات الاقطاعية و يعد الفلاحين باراض بدون سداد الدين. و في بيانات اخرى اعلن عن انشاء ورشات وطنية باجور عالية و ادراج حقوق متساوية لجميع المواطنين. الا ان الانتفاضة قمعت بسرعة.